مـــصـــر ..

بعيون إيرانية

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

مكتبة الشروق

القاهرة - كوالالمبور - جاكارتا

مصر...
بعيون إيرانية

د. جميلة كديفار
فايزة هاشمي رفسنجاني
السيد/ محمد صادق الحسيني

مكتبة الشروق

فهرس الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة

بين يدى الكتاب

زرت طهران لأول مرة فى بداية السبعينيات، كنت وقتها أخدم فى القوات المسلحة كضابط احتياط فى الدفاع الجوى ، ونظمت طهران بطولة العالم العسكرية لكرة الماء ، وكنت أحد لاعبى المنتخب المصرى.

حفظت ذاكرتى من تلك الزيارة حدثين ،.أولهما فى طابور العرض العسكرى لافتتاح البطولة ، وفيه قاد الفريق المصرى ضابط إيرانى يمشى بخطى عسكرية صارمة ، وما إن اقترب من المنصة الرئيسية للحضور ، حتى تشنجت مشيته وكأنه أصيب بمس كهربى ، بمحاذاة مندوب الشاه.

وثانيهما : عندما اضطررنا للذهاب لمستشفى عسكرى لعلاج أحدنا ، وقابلنا عدد من الطيارين الإيرانيين الشبان الذين يُعالجون فى نفس المستشفى ، فإذا بهم يسألوننا خفية عن حال مصر بعد رحيل عبد الناصر.

وجدنا العاصمة الإيرانية واسعة ، بها الأحياء الجميلة ذات الفيلات والقصور الفاخرة ، وكذلك الأحياء الفقيرة الرثة ، مثل القاهرة فى هذا وذاك. ويخترقها طريق واسع من جنوب طهران الفقير ، إلى الجبال فى شمالها الثرى.

كانت المرة الثانية لزيارة طهران فى أوائل التسعينيات ، وكان ذلك للاشتراك فى معرض طهران للكتاب.

سافرت طهران ومعلوماتى عن إيران لا تتجاوز ما كنت أطالعه فى الصحف المصرية عن الحرب العراقية الإيرانية التى استمرت ما يقرب من عقد كامل - كلفت الجانبين - طبقًا للكتاب الذى أصدره المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة وزير الدفاع الأسبق - ملايين القتلى والجرحى ، ومئات المليارات من الدولارات - وبيانات ملك

الأردن السابق الحماسية لدعم العراق الذى يدافع عن البوابة الشرقية للأمة العربية ، ورافعًا شعار قادسية صدام .

كذلك جمد فى ذاكرتى حديث الرئيس الراحل محمد أنور السادات للتليفزيون المصرى ، ويقول فيه : يهتف الإيرانيون : الله أكبر خومينى أكبر .

سافرنا إلى طهران بضعة من الناشرين المصريين ، ووجدنا أن الناشرين السوريين واللبنانيين يشاركون فى المعرض منذ سنوات طويلة قبلنا .

قامت إدارة المعرض بتجميع الناشرين المصريين فى منطقة واحدة داخل سراية الكتاب العربى ، وفوجئنا بالترحيب البالغ من كل طبقات زوار المعرض .. ابتداء من تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات ، .. إلى الموظفين وتجار البازار .. حتى الملالى بجلابيبهم وعمائهم البيضاء والسوداء (لا يرتدى العمامة السوداء إلا نسل فاطمة الزهراء) وكل يسأل عن مصر ، ويريد أن يزورها ... منهم من يريد رؤية النيل ومشاهدة الأهرام .. ومنهم من يريد زيارة مساجد أهل البيت .. الحسين ، السيدة زينب ، السيدة نفيسة .. وجامع الأزهر .. ومنهم من يريد رؤية الإسكندرية .. إلى شارع الهرم وملاهيه..

كذلك فوجئنا بالسؤال عن مصحف الأزهر .. ولا أخفى على القارئ أن مصحف الأزهر ـ ذلك الوقت ـ كان يُطبع بشكل متواضع ، سواء من ناحية الورق أو الطباعة أو التجليد ، فى الوقت الذى تطبع دمشق وبيروت ، والقطاع الخاص فى القاهرة أيضًا ، مصاحف ذات ثلاثة وأربعة وخمسة ألوان ، وفى حين أن مستوى الطباعة فى إيران لا يقل عن دمشق وبيروت والقاهرة.

عجبت من ذلك خاصة أن فترة الثمانينيات شهدت نشر عشرات الكتب عن الشيعة الإثنى عشرية ، تحذر من معتقداتهم المنحرفة .. ولا زالت أذكر كتابًا بعنوان « المجوس قادمون !» ومن ضمن ما تناولته بعض تلك الكتب مصحف فاطمة ... الذى يقرأه الشيعة .. وفى رواية : يقرأه بعض علمائهم ...

ذهبت لعدة دور نشر إيرانية فى المعرض ، فلم أجد إلا مصحفنا ، مع إضافة

ترجمة فارسية، كل سطر تحته سطر فارسي ٠٠ فى طباعة جميلة بالألوان الزاهية والورق الفاخر والتجليد الأنيق ٠٠ ذهبت لعدة مساجد فى طهران ٠٠ فلم أجد إلا نفس القرآن الذى نتلوه ونقرأه.

ولكنى وجدتهم لا يصلون جماعة إلا نادرًا ٠٠ ويجمعون ـ فى الغالب ـ الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ٠٠ كذلك وجدتهم يسجدون على قطعة من الحجر ٠٠

سألت عن كل ذلك من يأتى للمعرض من الملالى ٠٠ فكانت إجاباتهم أنهم لا يصلون جماعة إلا وراء إمام يعرفونه حق المعرفة ويثقون فى عدالته(*) ٠٠ وعندهم شروط فى الأرض التى يسجدون عليها ٠٠ ألا تكون من مادة تؤكل أو تلبس ، لذلك يسجدون على قطعة من الحجر من أرض كربلاء ، ولكن يمكن أن يكون الحجر من أى أرض طاهرة أخرى ٠٠ أما جمع الظهر والعصر وجمع المغرب والعشاء ، فهو رخصة ، والأفضل الصلاة لوقتها.

وجدت شعارات « خومينى رهبر » ٠٠ فسألت عن ذلك ، وعلمت أن رهبر تعنى القائد ٠٠ أى أنهم كانوا يهتفون الله أكبر خومينى القائد ٠٠ وهم الآن يقولون خامنئى (المرشد العام للجمهورية الآن) رهبر ٠٠ وذلك ما نقله الإعلام على أنه خومينى أكبر ٠٠ وقاله الرئيس السادات فى حديثه التليفزيونى !

عدت من زيارتى الثانية لطهران بانطباعات مختلفة عن التى سافرت بها ٠٠

ثم قرأت كتاب للدكتور إدوارد سعيد بعنوان « Coverage of Islam » يُفَصِّل فيه كيف قام الإعلام الأمريكى بتغطية الثورة الإيرانية ٠٠ وهى تغطية ناجحة بالمعنى الحرفى للكلمة ٠٠٠ فقد صور إيران أخرى غير إيران الواقع ٠٠ وإسلامًا آخرًا غير إسلام الواقع٠٠

بحثت فى المراجع السنية عن الشيعة وفرقها ٠٠ وقرأت للشيخ أبى زهرة وشيخ

(*) لم يكن الحجاج والمعتمرون الإيرانيون يصلون خلف الإمام السنى فى مكة والمدينة ، حتى أفتى الخومينى بجواز ذلك ، ولم يكونوا يصلون الجمعة ، انتظارًا للإمام الغائب ، وأيضًا أفتى الخومينى بوجوب صلاة الجمعة حتى فى غيبة الإمام.

الأزهر الأسبق شلتوت والدكتور أحمد صبحي وغيرهم ·· فوجدت أن الشيعة الآن أربع فرق ·· الزيدية ، وهم بضعة ملايين يعيش أكثرهم في اليمن ، وهم أقرب فرق الشيعة للسنة ، ثم الشيعة الإثنى عشرية وهم الأكثرية ، يعيشون فى الشام والعراق وإيران وآسيا الوسطى ، وهم يلون الزيدية فى القرب من السنة ، والفرقة الثالثة هى الإسماعيلية(*) ، يعيشون فى الهند وباكستان ووسط آسيا وهم يلون الإثنى عشرية فى العدد ، ويعتمد مذهبهم على التأويل ، فهو مذهب باطنى ، وهم أيضًا يلون الإثنى عشرية فى القرب من السنة· أما الفرقة الرابعة فهم العلوية ، وعددهم قليل كالزيدية ، يعيشون فى الشام وتركيا ، وهم أبعد فرق الشيعة عن السنة·

إذًا لماذا نشرت كل هذه الكتب التى تحذر من الإثنى عشرية وانحراف مذهبهم وعقيدتهم ، ولم يصدر كتاب واحد عن الإسماعيلية أو العلوية ؟ ولماذا كان ذلك بعد ذهاب الشاه ؟!

تتابعت زياراتى لطهران كل عام تقريبًا للاشتراك فى معرض طهران للكتاب ، وكل مرة يأتى للأجنحة المصرية عدد كبير من الزوار ·· بعضهم يشترون الكتب وبعضهم يأتون لمجرد التحدث مع المصريين والسؤال عن مصر والإعراب عن تلهفهم للسفر إليها ·· ومنهم - على سبيل المثال - فريد ·· شاب فى الثلاثينيات يأتى كل عام من إصفهان للقاء أصدقاءه المصريين ، ويفتخر بلغته المصرية وحفظه لأغانى عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش ، وأحيانا يطربنا بها ·· وقد وجدت ما يماثل ذلك فى ماليزيا وإندونيسيا ، سواء حب المصريين أو السعادة بالحديث معهم ، ولا أظن أنى وجدت فى أسفارى الكثيرة من يعشق المصريين مثل تلك الشعوب·

وقبل سفرى لمعرض طهران الأخير مايو ٢٠٠٠ ، قابلنى طالب فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، مصرى حاصل على الجنسية الأمريكية ، أخبرنى أنه سوف يسافر إلى طهران وسألنى هل من الأفضل أن يخبر الناس أنه أمريكى أم مصرى ؟

لم أدر كيف أجيبه ·· ولكن بمجرد وصولى طهران حكيت لصديقى الإيرانى السيد/ مصطفى طيبى ذلك الموضوع ، فكانت إجابته: إذا قال إنه مصرى ، فلن يجد

(*) ومنهم البهرة الذين يأتون مصر زرافات وأفواجًا منذ أواخر السبعينيات·

فى إيران من لا يحبه .. أما إذا قال إنه أمريكى ، فسيجد أقلية قليلة جدًا تحبه ، وأقلية أكبر منها لا توده .. والأغلبية لن تعير المسألة اهتمامًا خاصًا..

وقد سافرت منذ ثلاث سنوات لإصفهان ، وأردت شراء سجادة من أحد البازرات ، وقدمت بطاقتى الائتمانية فإذا بالبائع يتأسف أنها لا تنفع فى إيران ، ثم إذا به يعرض على أن أدفع أى مبلغ نقدى فى حدود ١٠% من قيمة السجادة وآخذها ، ثم أحول حسابها على بنكه فى دبى بعد وصولى القاهرة ، ولم يطلب أى ضمانات بأى شكل من الأشكال .. وذلك لأنى مصرى. تكررت نفس القصة بحذافيرها فى معرض سجاد آخر بإصفهان .. ولنفس السبب.

وبالمناسبة صديقى السيد/ مصطفى طيبى إيرانى من أصل تركى ، والأتراك يمثلون ربع إلى ثلث الإيرانيين(*) .. وهناك مقولة شائعة أن طهران عاصمة الأتراك وإصفهان عاصمة الفرس .. وأن إصفهان هى نصف الدنيا .. وهناك بجانب الأتراك أعراق كثيرة فى إيران .. الأكراد ، البلوش ، الآذاريون ، وهناك حوالى مليون لاجئ أفغانى .. وتقريبًا نصف مليون لاجئ عراقى .. وصدق أو لا تصدق هناك عرب يعيشون فى إيران بجنسية إيرانية عددهم أكبر من عدد العرب بدول الخليج العربى ..

* * *

بدأت قصة هذا الكتاب عندما أخبرنى باسم محمدى وهو عراقى لاجئ فى إيران ، وكان يعمل فى إدارة معرض طهران ، بأنه قرأ كتابًا بالفارسية للسيدة جميلة كديفار عن مصر ، نشرته إثر عودتها من زيارة صحفية للقاهرة تمت منذ عدة سنوات. سألت صديقى السيد/ محمد صادق الحسينى (مستشار وزير الثقافة الإيرانى) عن ذلك الكتاب وعن الكاتبة ، فأجابنى أنها برلمانية بارزة حاصلة على الدكتوراه فى العلوم السياسية ، وهى زوجة الدكتور عطاء الله مهاجرانى وزير الثقافة ، وهو شخصية مثيرة للجدل ، بل وللحرب الساخنة بين الإصلاحيين والمحافظين .. فهو يريد حرية إعلامية كاملة فى إصدار الصحف والمجلات - وهى بالمناسبة تصل

(*) خامنئى المرشد العام للجمهورية من أصل تركى.

حوالى مائة - ما بين يومية لأسبوعية لشهرية - ويضع المحافظون قيودًا على ذلك • (وجدير بالذكر أن الإصلاحيين يسيطرون على البرلمان ، وبالطبع الرئيس خاتمى على قمة السلطة التنفيذية ، بينما يسيطر المحافظون على السلطة القضائية) • كذلك أخو جميلة - محسن كديفار - أحد علماء الدين الإصلاحيين البارزين ، ولكنه رهن الاعتقال السياسى ، فهى وزوجها وأخوها من رموز الإصلاح(*)•

ثم اقترح السيد/ الحسينى ترتيب لقاء معها فى منزله بإحدى ضواحى شمال طهران ، فحضرت ومعها ابنها الرضيع ، فكنت أتكلم باللغة العربية الفصحى التى تفهمها ، ثم تجيب بالفارسية ويترجم ذلك السيد/ الحسينى •

اتفقنا على أن أقتطف بعض أجزاء من الكتاب يترجمها باسم محمدى إلى اللغة العربية •

ثم اقترح السيد/ الحسينى أن يضيف للكتاب ورقات قليلة كتبتها السيدة فائزة رافسنچانى - إبنة الرئيس السابق رافسنچانى - إثر زيارتها لمصر • وإذا كانت الدكتوره جميلة وزوجها وأخوها من رموز الإصلاح ، فإن رافسنچانى أكبر رموز المحافظين • وافقته على ذلك ، وطلبت منه أن يكتب مقدمة للكتاب ، فجاءت المادة التى بين يديك ، عزيزى القارئ•

عادل المعلم

* * *

(*) أثناء إعداد الكتاب للطباعة ، استقال الدكتور مهاجرانى وزير الثقافة ، وتم الإفراج عن محسن كديفار •

المقدمـــة

السيد / محمد صادق الحسينى

مستشار وزير الثقافة الإيرانى

الحديث عن مصر ليس سهلا ، والكتابة عنها أصعب من ذلك، والتعبير عما يجول فى خواطرى عنها أو عندما يذكر اسمها أكثر صعوبة، فمصر التى سمعتها ومصر التى قرأتها ومصر التى وصلتنى أخبارها قبل أن أصل إليها ، ومصر بعد أن رأيتها كانت فى كل مرة تزيدنى ارتباكـًا فى الحديث عنها أو الكتابة عن أحوالها ، فمصر كانت ولا تزال تعنى لى ذلك النبع الهائل الذى لا ينضب من الميراث الفكرى والثقافى ، وفى إطار أوسع الإرث الحضارى المدنى ، كما تعنى فى الوقت نفسه الغدير الذى لا ينضب من الإحساس والعواطف الجياشة ومزيج من الروح والوجدان والتعلقات بكل ما هو مثير للمعانى المتجددة والبناءة .

ومصر أيضًا ، ذلك الشعب الطيب ذو الوجه الصبوح والبشوش فى غالبيته ، والعزيز دائمًا رغم معاناة الدهر وتحولات العصور ، وصاحب النكتة الدائمة والحركة الدائبة من أجل اكتساب الرزق والجهاد فى سبيله تحت مختلف الظروف من أيسرها إلى أحلكها ، بدأ ويبدو وسيظل الأقرب إلىّ وإلى الكثير من أقرانى وأصدقائى وزملائى ومعارفى ، وممن عاشرت من العرب والعجم فى إيران ما قبل الثورة وما بعدها ، إيران الحكام وإيران المحكومين، إيران الساسة وإيران المثقفين ، إيران بتنويعاتها وتعدديتها العرقية والسياسية والثقافية الفكرية ، أقرب إلينا من أى شعب آخر فى ميادين عديدة .

فمصر المطبوعة فى أعماق خيالنا وفى جذور تربيتنا ونشأتنا منذ نعومة أظفارنا ، وفى ثقافتنا كما فى معارفنا العامة ، تثير فى دواخلنا نزعة التراحم وتعميم ثقافة

الحريات العامة وسياسة التساهل والتسامح مع الآخرين ، والدعوة الصريحة إلى التآخي ، كما ورد في رسالة أمير المؤمنين على عليه السلام وهو يخاطب واليه على مصر (مالك الأشتر) قبل أن يرسله إليها ، وبذلك تكون مصر التي نعرفها في أذهاننا منذ البداية هي المثل الأعلى ، مصر التي تجمع بين العدالة والقانون والتي يتآخى فيها البشر في الدين وفي الخلق ، مصر الجامعة الموحدة والمتحدة حول السنن الكونية .

لكن مصر التاريخ القديم والضارب في أعماق الخلق الرباني المبدع ، هي أيضًا - ورغم معرفتنا المتواضعة عنها في هذا المجال وبُعد تواصلنا معها في هذا السياق - هي مصر الحضارة القديمة قبل دخول الإسلام إليها وبعد دخوله ، فمصر السابقة على هذا التاريخ هي مصر العزيز وما قبله وما بعده من أعزاء مصر الذين صنعوا تاريخ الحضارات الكبرى وسجلوا نقوش الفن والإبداع الإنساني في مختلف مجالات الحياة على يد أهلها أصحاب المنعة والحنكة التي لا تنضب .

ومن مصر بعد ذلك - كما يتوالى تاريخ الإبداع - ازدهرت الحضارة الإسلامية ، رغم جور الحكام والسلاطين الذين توارثوا الحكم في بلاد المسلمين على حساب مقدرات الأمة وشعوبها ، لكن مصر ظلت شامخة في السياسة والإدارة ، وكذا في العمران والفن ، وفي الأدب والثقافة ، وفي الانفتاح والحوار مع الآخرين ، وقبل ذلك وبعده في الأصالة والولاء للنبي الخاتم وآل بيته الطيبين الطاهرين وللصحابة المنتخبين والتابعين إلى قيام يوم الدين .

وهكذا كانت مصر الفاطمية ومصر الأزهر الشريف ، ومصر المولدة للفكر المستنير ومصر المتجددة دومًا في العطاء والأداء .

فكانت أيضًا مصر الحديثة ، مصر الأفغاني الحسيني الأسد آبادي ، ومصر محمد عبده ومصر الكواكبي والطهطاوي ، ومصر سعد زغلول ومصر حسن البنا ومصر عبد الناصر ، وأخيرًا وقبل كل ذلك وبعده مصر الشعب المعطاء الذي يعشقه كل من عرفته من الأقران والزملاء والمعارف والأصدقاء في إيران، حكومة ومحكومين على السواء ، مصر الكبرى في العقل كما في العاطفة ، مصر الشعب العظيم بوجهه البحري وعمقه الصعيدي ، مصر منبع الساسة والعلماء ، مصر المفكرين والمثقفين

وأرباب الرأى والرأى الآخر ؛ الذين لا ينضب عطاؤهم فى سرّاء الأمة وفى ضرائها.

مصر التى نعرفها جميعًا هى مصر الكبيرة فى عيوننا ، فى تاريخها وفى حاضرها، كبيرة فى كل شىء ، وهى التى ستظل تحتل المكانة البارزة فى عقول وقلوب ملايين الإيرانيين أيا كانت عوائد الدهر المحيطة بها.

لا يختلف المسلمون فى إيران حاكمين كانوا أم مواطنين ، عاملين فى الدولة أو فى مؤسسات المجتمع المدنى ، على أهمية مصر ، مصر الشعب وكذا مصر الدولة ، ومصر التاريخ ومصر الجغرافيا ، ومصر فى المعادلة الإقليمية وكذا فى المعادلة الدولية ، وهم جميعًا مطمئنون إليها وإلى مؤسساتها العريقة ، عارفين بمعاناتها وبالمحن التى مرت ولا تزال تمر بها فى معركة الثبات وإحقاق الحق والدفاع عن استقلالية القرار المصرى رغم كثرة حقول الألغام من حولها.

ويجتمع الإيرانيون على محبتهم لمصر ورغبتهم الجامحة فى رؤية المياه وقد عادت إلى مجاريها الطبيعية ، وستبقى مصر كبيرة فى عيون الإيرانيين ، ويبقى الإيرانيون ينتظرون الوصال والتواصل مع مصر ، بعيون المبدع الإيرانى فى نبوغه الفنى ، الباحث عن ترجمة عربية كاشفة لذلك الإبداع ، وذلك لن يتحقق إلا على يد أخيه المصرى.

* * *

مصر التى فى خاطرى

ربما تنتابك الرهبة عند زيارتك الأولى لمصر ، قد ينبع ذلك من استحضار التاريخ الغابر بعراقته وثقله وما يفضى إليه ذلك من الظن بأن التعامل سيكون مع كل ذلك ، مما يوحى بمهمة صعبة للغاية.. لكنك سرعان ما ستكتشف تفوق أهلها النادر فى احتوائك وتسهيل مهمتك منذ اللحظات الأولى التى تطأ فيها قدماك مطار القاهرة ، تستقبلك الآية الكريمة التى تزين بوابة مصر مضفية عليك مشاعر الاطمئنان الكامل :

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ءَامِنِينَ ﴾[سورة الحجر : الآية ٤٦]..

بعدما يستقبلك الشعب الطيب الكادح إلى ربه كدحًا ، فيلاقيك بعيونه وقلبه وكل مشاعره ، ويفيض عليك من الحب والود والمشاعر الرقيقة ما ينفى عنك الإحساس بالغربة.. «شرفت مصر.. نورت القاهرة» عبارات تتكرر معبرة عن صدق المشاعر وطيبتها لتكتشف رويدًا رويدًا مدى إيمان هذا البلد ومدى اعتزازه بانتماءاته الإسلامية والعربية والأفريقية والعالم ثالثية - إذا جاز التعبير - .. والإنسانية عمومًا.

عندما يعرفون أنك قادم من إيران ، سرعان ما يستقبلونك بالأحضان مؤكدين أن ما يربط بينك وبينهم كثير من حب النبى وآل بيته ، بل وكل من ينتمى إلى المحبين لهذا البيت الجليل ، ثم يكلمونك عن الكاشانى ومصدق وخاتمى ليشعرونك بالتواصل بين الشعبين.

وفي مصر تجد - أيضًا - مصر القبطية التى تعبر عن التعايش بين الأديان والثقافات والحضارات ، وهكذا تجدهم رغم تعددية منابتهم وأصولهم العرقية والثقافية ، يتمحورون حول حضارة مشتركة جعلت المسلمين يستوعبون الآخر المسيحى ، يقتبسون منه ما هو مفيد ونافع ، كما تثقف المسيحيون بثقافة إسلامية أصيلة ، رغم كونهم يذهبون إلى الكنيسة لأداء فرائضهم.

هكذا تشعر بعطاء الأديان وتسامح الإنسان. ففى كلتا المرتين اللتين زرت فيهما مصر ، لم أشعر بتطرف الإنسان المصرى مسلمًا كان أم قبطيًّا ، حتى أولئك الذين يكلمونك بحماس عن ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، أو هؤلاء الذين ينادون - من المسيحيين - بفك الاشتباك بين الدين والدولة ، تجدهم يكنون كل احترام لبعضهم ، ويتمنى كل منهم للطرف الآخر نجاح مشاريعه على ألا تأتى بضرر على الهوية الثقافية المصرية الجامعة ، وثقافة المصرى الطيب المتسامح المتفتح على الآخر ، رغم تمسكه بأصوله وجذوره وذاته.

أن تكون فى مصر فهذا يعنى أن تكون بين محبى آل البيت.. يعنى أن تعيش عصر الفاطميين وعصر الأزهر الذى يشع باستمرار بحب شعب مصر لكل ما هو محمدى وفاطمى وحسينى أصيل ، ولم أر شعبًا عاشقًا لآل البيت كهذا الشعب ، حتى

أننى أعتقد أنه لو أجريت مسابقة فى باب العشق وللعاشقين لبيت النبى وآله الأطهار لفاز الشعب المصرى بامتياز على سائر الشعوب.

فى مصر علماء الأزهر ، كما أن بها البابا شنودة والكنيسة القبطية التى تشعرك بالذات المصرية بهويتها وثقافتها الأصيلة المتسامحة ، لكنها - فى الوقت ذاته - المعتمدة على المبدأ ، مما يكسبها قوة منيعة لم تؤثر فيها عوائد الدهر وعنف المواجهة والتحديات ، فلا تطبيع مع العدو المحتل والغاصب الساعى إلى الهيمنة ، صهيونيًّا كان فى ثقافته ، أو إسرائيليًّا كان فى سياساته ، أو غربيًّا كان فى نزعته المتعالية. هذا ما يلحظه كل زائر لمصر .. وهو نفسه الذى ترك لدى - على مدار زيارتين لها - انطباعات أهمها أن مصر التى يسعى أعداؤها لتهميشها أو إملاء القرارات عليها ، لا يناسبها ذلك مطلقًا ، مما يجعل كل هذه المحاولات تصل إلى درجة الاستحالة.

* * *

عواطف مشتركة فى طهران

عندما تلتقى بعمرو موسى تشعر بأنك تلتقى مع عصارة الدولة المصرية بمؤسساتها العريقة وثقلها السياسى الذى يعبر عن موقعها الجيوسياسى وتاريخها الحضارى الهام.

وعندما تحاور الرجل تشعر بأنك تحاور جمعًا من المتمرسين فى العلاقات الإنسانية الرفيعة ، يجاملك بمقدار ويصارحك بمقدار ، ويضع جزءًا من أوراقه فى سلة الاحتياط بمقدار.

إنه رمز الديبلوماسية المصرية التقليدية من جهة ، كما هو رمز الطموح الذى يسعى لأن تأخذ مصر دورًا متميزًا فى عالم ما بعد الحرب الباردة من جهة أخرى.

رجل ثقة إذا صدقته القول صدقك ، قريب منك إذا صارحته ، مفتوح القلب لكل نقد بناء ، لكنه حازم فى مواقفه ومدافع عنيد عن مصالح وطنه وشعبه.

على أية حال لقد لعب قدوم عمرو موسى ممثلا لمصر ورئيسًا للديبلوماسية

المصرية فى المؤتمر الثامن لقمة الدول الإسلامية الذى انعقد فى طهران فى خريف العام ١٩٩٧م ، دورًا كبيرًا فى إعادة إحياء الاهتمام بمصر المتأصل فى دوائر السياسة الإيرانية ، وأعطى دفعًا جديدًا لسياسة الحوار الإيرانى العربى وضرورة فتح النوافذ باتجاه العالم الآخر والرأى الآخر وخصوصيات كل دولة ومحاذيرها وتحفظاتها.

على هامش اجتماعات المؤتمر المذكور ، كان لنا لقاءٌ ودى مع الوزير عمرو موسى ترك آثارًا إيجابية متبادلة وانطباعات مثمرة على طريق الحوار الثنائى المتبادل ، إذ تمكنّا من جانبنا - أنا ومعى بعض أصدقاء مصر والعالم العربى - من شرح الخصوصيات التى تتميز بها الحالة الإيرانية بما يساعد السياسى المصرى الكبير من قراءة متصالحة مع العهد الجديد ، هذا فيما بذل الوزير عمرو موسى مساع محمودة لشرح وجهة النظر المصرية الرسمية والشعبية فيما يخص الوضع الإيرانى ، وتوقعات الدولة المصرية من أصحاب القرار فى إيران ، وهو ما نقلناه إلى الرأى العام الإيرانى عبر قنوات الصحافة.

وكما اكتشف الوزير المصرى إمكانيات جديدة للاقتراب من إيران ، فقد ازداد عدد النوافذ التى يمكن فتحها من الجانب الإيرانى تجاه مصر فى أعقاب المباحثات والمداولات البناءة التى أجراها مع المسئولين الإيرانيين ، لا سيما لقاءه المهم مع الرئيس محمد خاتمى ، والذى ترك انطباعات جيدة لدى كل من اطلع على محتويات ذلك اللقاء ، كما ترك انطباعًا إيجابيًا متميزًا لدى السيد عمرو موسى أيضًا حسبما تناهى إلى سمعنا من قنوات مختلفة.

يجمع المتتبعون لملف العلاقات الإيرانية المصرية بأن زيارة عمرو موسى لطهران كان لها وقع خاص فى الدوائر الإيرانية المختلفة ، وأن الانطباع العام كان ولا يزال يشير إلى تقارب مصرى وإيرانى على أكثر من مستوى وفى أكثر من مجال.

لقد اكتشف الطرفان - على ما نظن - بأن كل مقومات التعاون الدائم والمستمر على مختلف المستويات موجودة ، ولا ينقصها إلا التفعيل المستمر والتشجيع من قبل

المسئولين فى البلدين ، لما من شأنه إعادة إحياء عصر النهضة الذى طالما جمع بين مصر وإيران فى مراحل تاريخية مختلفة ، وهما اليوم أحوج من أى وقت مضى إلى مثل هذه الاجتماعات ، بما يرسخ من مقومات وتوظيف الطاقات الكبرى - على المستويين الإقليمى والدولى - التى يتمتع بهما كل من البلدين الكبيرين ، وثقلهما الذى لا يستهان به فى المعادلة العالمية.

محمد صادق الحسينى

* * *

مصر التى رأيتها

جميلة كديفار

حديث البداية

« قيل إنه لا يُعرف من أين تنبع مياه النيل ، وسمعت أن ملك مصر بعث رحالة يسير بمحاذاة النيل سنة كاملة كى يتقصى الأمر ، إلا أنه لم يتمكن من معرفة حقيقة ذلك ، حتى قيل إن مياه النيل تتدفق من جبل يسمى جبل القمر » ٠

رحلة ناصر خسرو

١- ما كدت ألتحق بالمدرسة حتى أحببت أن أكون «منقبة أثرية »٠ كنت أرقب السياح فى «تخت جمشيد»[1] وهم يحدقون بدقة فى الكتب التى بين أيديهم ويعبثون بنظاراتهم وبالأحجار هنا ليتعرفوا سرّها ، كنت أتصور أن إخراج التراب والأحجار من أماكنها يثير فى نفسى الوله والحب الشديد ، ذلك لأن حفر الأرض بحد ذاته والعثور على الخبايا العجيبة كان يشبع فى ذاتى روح التنقيب الطفولى ، ويثير فى كيانى ما كان يجول فى خاطرى عن حياة قدماء البشر ، إذ كنت أقوم بصياغة أشكالهم آنذاك حسبما أتخيل ، وأقطع الجبال والوديان فى عالم الخيال الطفولى ، وأستلُّ الأشياء الواحد تلو الآخر من باطن الأرض ، وهكذا أمضيت سنتين أو ثلاث سنوات فى أحلام جميلة ٠

وعندما أصبحت فى الصف الثانى الابتدائى حدث ما غَيَّر كل ذلك ، فقد جاء مفتش التربية والتعليم ليتفقد الصفوف ، وأخذ يسأل التلاميذ عما يريدون أن يكونوا فى المستقبل٠ آنذاك سألنى عما أريد أن أكون ، وقبل أن أجيب بادر ناظر المدرسة وقطع حديثى قائلا : إن التلاميذ الخاملين يختارون الفروع الأدبية عادة ! ومنذ ذلك اليوم قررت أن أتخلى عن أن أصبح منقبة أثرية ، وأن أرد على من يسألنى عما أريد أن

---

(١) تخت جمشيد: آثار يعود ماضيها إلى أكثر من ٢٥٠٠ عام وتمثل قصر الملك جمشيد ومحل قيادته٠ وتقع فى ضواحى مدينة شيراز مركز محافظة فارس الحالية « المترجم »٠

أكون فى المستقبل بالقول أننى أريد أن أكون « طبيبة جرّاحة »، ثم يتسائلون عن نوع هذه الجراحة ؟ فأرد بالقول « جراحة مخ أو قلب»· ونفس ذلك التطلع والروح الطفولية القلقة خيّمت على ذهنى ؛ لأعرف ماذا يدور فى داخل قلب وعقل الإنسان·

منذ ذلك الحين ، أصبح فتح جمجمة أو صدر إنسان بغية التعرف على عالم الدماغ والقلب العجيب للإنسان واكتشاف الآلية المحكمة لهما ، ألذ بالنسبة لى من اكتشاف آنية طينية قديمة أستلها من بين طبقات الصخور والأتربة·

إن المسافة بين تلك الأيام وما أنا عليه الآن ، هى نفس المسافة بين الآمال والواقع بما انطويا عليه من اختلاف وقلق وضجيج· فاليوم وبعد مضى سنوات، أجدنى لم أصبح منقبة أثرية ولا جرّاحة دماغ أو قلب ! لقد جذبنى الملك الذى يمسك بزمام السماء الزرقاء إلى قدرى فى الصحافة ، والآن أشعر بالرضى ؛ ذلك لأن تنقيب الآثار والجراحة يمكنها أن ترضى جانبًا من طموحاتى ، أما الصحافة فإنها عالم أوسع بكثير من ذلك· فالصحفى هو جراح لبلد برمته ولنظام بأجمعه ، ووصفته الطبية يمكنها أن تعالج بلدًا بأكمله ! فأسئلته لدى لقائه بالآخرين ما هى إلا شفرة جراح تقوم بإجراء عمليات جراحية للأذهان والقلوب معًا ، حتى يبدو الحديث مع الشخصيات فى واقع الأمر كعملية جراحية ؛ إذ إنها عملية تشريح للفكر الحى !·

٢ـ منذ ذلك الحين كنت على معرفة بمصر ، عرفتها من قصة موسى وفرعون وقصة يوسف وإخوته ، من زليخا وكليوباترا ، من الأهرام الثلاثة وتمثال أبى الهول ، من فاروق وجمال عبد الناصر ، من النيل وجزيرة سيناء ··· كل واحدة من تلكم كانت تثير فى اسم مصر· والآن تيسرت لى زيارة مصر ، هذا البلد الذى يعبر عن أشكال مختلفة وتناقضات لا متناهية ، وكأن فرصة تظليل خواطرى الطفولية بالألوان قد حانت·

لقد شكلت مصر بالنسبة لى كموضوع للبحث والتحقيق أهمية من الدرجة الأولى ، وحينما قال مسئول الصحيفة التى أعمل فيها إنه سيتم إرسال وفد إلى القاهرة للمشاركة فى مؤتمر وزراء خارجية الدول غير المنحازة ، أحسست أن الحظ قد حالفنى هذه المرة كى أطلع على مصر عن قرب ، ومن حسن الحظ أن وزارة الخارجية قد دعت الصحف كافة لترشيح ممثليها بغية المشاركة فى هذه الزيارة·

لقد عقدت النية منذ اليوم الأول الذى طرحت فيه فكرة زيارة مصر على أنى إذا ما زرتها فلابد أن أقوم بإثراء معلوماتي ومعلومات قرائى فى إيران عن هذا البلد ، خصوصًا أن هذه الزيارة تأتي في وقت كانت بعض الصحف الإيرانية تطرح فيه من أن لآخر شعارات وموضوعات عن مصر ، تنقصها المعرفة الكاملة والرؤية الشاملة. لذا وجدت أن مدة زيارتي - والتي لا تزيد على ستة أيام - محدودة بدرجة غير كافية للتعرف على ما أريد ، خاصة أننا سنقضى هذه الأيام الستة فى صالة المؤتمر . من هنا طلبت من إدارة الصحيفة أن أبقى مدة أكثر ، فتمت الموافقة وتوفرت سبل الزيارة بسرعة ويسر .

٣- نظرًا للظروف الخاصة المهيمنة على العلاقات بين مصر وإيران ، والظروف الاستثنائية التي خيمت على مصر نتيجة لعقد المؤتمر ، لم أفلح في التعرف على مصر بالدرجة التى كنت أتطلع إليها. غير أن مصر المتألقة دومًا يمكن قراءتها حتى خلال فترة وجيزة ، ويمكن أيضًا الإجابة على سؤال : ما هو وضع مصر وما هى ظروفها ؟ وإذا لم يتمكن بعض المراسلين من إضافة شيء جديد عن مصر ، فإن سبب ذلك هو اعتمادهم فى تحليلهم على معلومات سابقة ؛ لذا كان بإمكان أولئك البقاء في بلدهم وتقديم ما قرأوه.

فى ختام هذا الجانب من الحديث ، أود أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل الإخوة والأخوات الذين ساعدونى فى هذا الكتاب. وأشكر أيضًا زوجي(*) على ما أبداه من نقد ووجهات نظر .

* * *

(*) هو وزير الثقافة الدكتور عطاء الله مهاجرانى (قدم استقالته أثناء إعداد الكتاب للطبع).

منشور من ألف لون ٠٠٠هبة النيل

على الرغم من أن الستارة الأولى لمسرحية التاريخ الحضارى لم يكشف عنها فى مصر ، بل فى أرض السواد ، فى منطقة بين نهرى دجلة والفرات ، أى بعبارة أخرى فى حضارة عيلام وسومر باعتبارها أسبق من الحضارة المصرية ، وأقدم من الحضارات الأفريقية والأوروبية بكثير ، إلا أنها ـ أى الحضارة المصرية ـ أهم وأثرى ثقافة ومدنية من أى حضارة تاريخية معروفة٠

لقد قدم هيرودوت مصر باعتبارها ـ هبة النيل ـ لذلك ليس من الصعب القول بأن مصر تقع فى قلب أقدم منطقة حضارية عرفها العالم ، من هنا إذا أردنا معرفة مصر معرفة واقعية ، فلا ينبغى البدء بالقاهرة ؛ ذلك لأن القاهرة أقل مصرية من سائر بقاع مصر٠

فالنيل بشواطئه وقراه هو أفضل ما يمكن أن يدلنا على معرفة مصر وحضارتها ، وكما تقول « تيرى دجاردن » إن مصر هى النيل٠ أو لكى نعرف مصر لابد من دراسة النيل كله ، لقد منح النيل الحياة لمصر ٠٠٠فهو واحد من أطول أنهار العالم ، حيث يمتد من فكتوريا إلى الشرق الأوسط ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ويقطع فى طريقه الطويل آلاف الكيلومترات ٠٠٠ وحيثما جرى بعث وراءه الحياة والازدهار ، أما فرعاه الأبيض والأزرق فيلتقيان فى السودان٠ إنه يطمح إلى إرواء صحراء مصر الواسعة ، هذه الصحراء التى لم تسمح لمصر أن تتألق حضارتها كتألق نيلها ، حتى ليبدو أن عظمة حضارة مصر إنما تجلت بين ثنايا الحقول والمحاصيل٠

لا شك أنه لا يوجد شعب يعشق نهره كما يعشق المصريون نهر النيل ،

فالمزارعون يعقدون الآمال كل عام على ازدياد مياه هذا النهر ، وفى الوقت نفسه يتخوفون فيضانه. لذا فإن المصريين ومن قبل التاريخ كانوا يشقون الترع إلى جانب هذا النهر للاحتفاظ بمياه موسم الفيضان ويقومون بتخزينها للموسم الزراعى حينما ينضب الماء ومن ثم يتم استخدامها للرى[١].

إن مجرى هذا النهر - وخلافًا لكثير من الأنهار - يبدأ من الجنوب متجهًا إلى الشمال ، ومن خصوصياته العجيبة هو أن مياهه تزيد حينما تنضب مياه سائر الأنهار فى فصل الصيف. وحينما ترتفع مياه سائر الأنهار فى مجاريها تنخفض مياه نهر النيل[٢] . إنه واحد من أشهر خمسة أنهار فى العالم ، ومثلما يقول ابن بطوطة: إن نهر النيل من حيث عذوبة مياهه ووفرتها وفوائدها ، هو أفضل من مياه العالم كافة ؛ حيث أحياض القرى والأرياف حوله ، ولا يوجد نهر استثمر أهله مياهه للزراعة كهذا النهر ، فعلى امتداد سواحله هناك شريط أخضر يمتد بعرض عشرين كيلو مترًا ، وهى الجزء الوحيد من الأرض فى تلكم المنطقة الصحراوية التى باشرتها يد الإنسان بالإعمار والزراعة.

إن مساحة مصر البالغة مليون كيلو متر مربع ، لا يزرع ولا يستغل منها للسكن إلا أقل من أربعة بالمائة ، حيث تقع هذه المساحة فى المناطق المحاذية للنيل ، وسائر تلك المساحة أى ٩٦ بالمائة منها تشكل مناطق صحراوية غير قابلة للسكن. لقد عبر القرآن الكريم عن النيل بالبحر حيث قال: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾[٣] واليم هو البحر ، وعلى أية حال فإن النيل هو الركن الأساسى فى الحضارة المصرية. كما أن وجود شعب ذكى قادر على الاستفادة من النيل العظيم هو البناء على ذلك الأساس ، لأننا إذا ما اعتبرنا النيل عاملا وحيدًا فى صناعة الحضارة فى مصر ، فكان ينبغى أن تكون الحضارة المصرية على طول ستة آلاف كيلو متر بطول هذا النهر ، فى حين أن الأمر ليس كذلك ، وإذا قلنا إن تقل حضارة النيل هى فى مصر فيجب

---

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الأول ، النسخة الفارسية.
(٢) رحلة ابن بطوطة المترجمة إلى الفارسية.
(٣) سورة القصص ، الآية ٧ .

القول ـ وهو تصحيح لحديث هيرودوت ـ إن مصر ليست هبة منحها النيل فقط ، بل إن مصر هى هبة أهل مصر ٠

لقد تبلورت الحضارة المصرية فى عمارتها القديمة ، وفى معرفة هذا الشعب العظيم لحركة النجوم والكواكب ، ووضعه النظم الهندسية ، وكذا تقسيمه السنة إلى ٣١٠ يومًا ثم إلى ٣٦٥ يومًا وإلى اثنى عشر شهرًا ، كل ذلك يحدث منذ ستة آلاف سنة ، هذا مضافًا إلى أن علوم الرياضيات بدت آفاقها فى هذه الحضارة ، وكذلك الطب ومعرفة الورق والحبر ، وكل واحد من هذه الإنجازات يكفى لأن يكون له دور فى عظمة أى حضارة وشمولها٠

إن مصر كالنيل العظيم الذى يتشكل فى البدء من رافدين ، إذ أنها هى الأخرى تتشكل من مصر العليا ومصر السفلى ، حتى وحَّدهما سنة ٣١١٠ قبل الميلاد « منس » الذى يطلق عليه باللغة العربية اسم « مينا »٠

يعتقد المؤرخون أن التوجه والتحرك نحو معرفة مصر كان نتيجة لتعطش نابليون للسلطة ؛ ذلك لأنه إلى ما قبل الهجوم النابليونى ، كان الظن مبنيًا على أن الحضارة إنما بدأت من اليونان ، وما كان يعرف عن مصر آنذاك إلا كونها مستعمرة من مستعمرات الروم٠ لقد اصطحب نابليون خلال حملته المعروفة عام ١٧٩٨م على مصر مجموعة من المهندسين والرسامين والفنانين لرسم خريطة هذا البلد العريق ، كما رافق هؤلاء عدد من المفكرين لفهم واستيعاب تاريخ مصر ، وتميز « شامپليون » ـ الذى كان أحد أعضاء الوفد المذكور ـ بدور أساسى فى اكتشاف وتعريف الحضارة والثقافة المصرية ، وكما يقول ـ ويل ديورانت ـ فى الوقت الذى خرج فيه الإمبراطور الشاب ـ نابليون ـ من مصر بخفى حنين ، خرج شامپليون وهو يحمل فى قبضته كل مصر ، سواء حاضرها أو ماضيها٠

* * *

مركز ثقل العالم العربى

لا ينبغى للإنسان أن يغالط نفسه عند تقييمه للدول ، وكما يحدث مع الشخصيات يجب أن تقيّم الدول طبقاً لمنزلتها ، فالدولة التى تتمتع بتاريخ عريق وحضارة ذات جذور ، لا يمكن أن تتساوى بأخرى عديمة التاريخ والحضارة والهوية ، فعلى سبيل المثال لا يمكن أن نضع مصر بازاء دول ظهرت فى النصف الثانى من القرن العشرين ، بل إن بعضها هى من صنع الاستعمار البريطانى ، إن مصر بلد أصيل وعريق ، ويمتلك حضارة تمتد إلى آلاف السنين، وتمثل ثقل ورمز العالم العربى، فكل حدث مهم يبرز فى القاهرة ؛ نجد أصداءه تنعكس لا محالة فى أنحاء العالم العربى كافة ، وحينما يكون الارتباط وثيقًا بين الحكومة والشعب فى مصر ، نجد أن آثار هذا الارتباط ينعكس بشكل أو بآخر على شعوب ودول المنطقة ، وعندما يتأثر هذا الارتباط فى مصر ويحدث انفصال بين المجتمع المدنى والمجتمع السياسى ، ينعكس هذا التنافر والتشنج بشكل أو بآخر على شعوب ودول المنطقة أيضًا، على سبيل المثال:

١- يوم كانت الناصرية تعيش ذروتها فى مصر ، تأثر العالم العربى بأفكار جمال عبد الناصر،

٢- تميز التيار الإسلامى فى مصر بالأصالة وامتداده فى عمق تاريخ الإسلام ، وتأثيره على التيارات الفكرية الإسلامية فى العالم العربى،

٣- قيادة مصر للعالم العربى فى مواجهة إسرائيل خلال مرحلة معينة،

٤- وفى الختام إقامة السلام مع إسرائيل وقبول الدول العربية هذه السياسة بعد عشر سنوات ، مما يشير إلى ثقل مصر فى التحولات السياسية للعالم العربى ودول منطقة الشرق الأوسط وتأثر هذه الدول بمصر ،

ولا شك أن عدد سكان مصر ، والذى يقارب - أو يزيد - على ثلث سكان العالم العربى بأجمعه له وزنه وثقله الخاص،

من جانب آخر ، فإن الموقع الاستراتيجى لمصر قد منحها الفرصة للوصول إلى

المياه الحرة فى البحرين المتوسط والأحمر ، والسيطرة على قناة السويس وعلى مناطق أخرى. وبطبيعة الحال فإن ذلك مهد السبيل لهذا البلد لأن يكون له ثقل فى عالم الـچيوپوليتيكا ، وربما كان ذلك مبررًا لسياقات تاريخية اعتمدت فى معظمها على هذا الثقل.

لقد واجهت مصر حملات وأطماع الأجانب منذ مطلع التاريخ ، حيث احتل الآشوريون مصر من عام ٦٧٠ وحتى عام ٦٥٤ قبل الميلاد. وكذا الإيرانيون من عام ٥٢٥ وحتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، غير أن الإسكندر تمكن من طردهم من مصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد وحكم البلد بنفسه ، ومن عام ٣٠ قبل الميلاد وحتى عام ٣٩٥ ميلادى تم إلحاق مصر بالإمبراطورية الرومية ، ثم أصبحت جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية من عام ٣٩٥ وحتى عام ٦٤٢ ميلادى ، وخلال هذه الفترة فتح العرب المسلمون مصر[١]. وقد توالى على حكم مصر خلال فترة الحكم الإسلامى قادة مختلفون ، منهم عمرو بن العاص خلال فترة حكم الخليفة الثانى ، ومالك الأشتر خلال فترة حكم الخليفة الرابع[٢].

لقد اتخذ الفاطميون عام ٩٠٩ ميلادى - بعد تأسيس دولتهم فى المغرب العربى - مصر عاصمة لخلافتهم بعد فتحها ، وقاموا بنشر المذهب الشيعى هناك.

وتعاقب على حكم مصر أيضًا صلاح الدين الأيوبى بعد انقراض الدولة الفاطمية عام ١١٧١ ميلادى[٣]. وكان يتبع المذهب الشافعى. ثم جاء المماليك إلى حكم مصر عام ١٢٦٠ ميلادى ، وهم من العبيد الذين استخدمهم الأيوبيون ، وتسنموا مناصب عسكرية حتى تمكنوا من الهيمنة على الحرس ، وتسلموا زمام الأمور من خلال هجوم قاموا به ضد أسلاف صلاح الدين الأيوبى. وفى سنة ١٥١٧ خضعت مصر للحكم العثمانى ، وفى سنة ١٧٩٨ و١٧٩٩ قام نابليون بحملته ضد مصر ، كما حكم محمد على باشا مصر من عام ١٨٠٥ وحتى ١٨٤٨.

---

(١) موسوعة المورد ، جـ٤ ، ص٣٠ .

(٢) عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما.

(٣) أمين معلوف ، الحروب الصليبية (من وجهة نظر الشرقيين) ترجمة عبد الرضا هوشنك مهدوى (طهران ، مطبعة البرز ١٩٩١) ، ص ٣٨٣ .

وفى عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر ، التى أصبحت واحدة من المستعمرات البريطانية ، وفى سنة ١٩٣٦ وقعت مصر وبريطانيا معاهدة تقضى بإنهاء الاحتلال البريطانى ، إلا أن قناة السويس ظلت بيد البريطانيين وظلوا يتحكمون فى مصر ، مع بقاء قواتهم العسكرية بها .

وقد خلف كل من احتل مصر وحكمها تراثًا من الآداب والمعارف ، مضافًا إلى أن الحكام كانوا يستجيبون لطلبات المصريين ، وكان المصريون يقاومون أولئك الحكام أو يثورون عليهم .

وإذا كان احتلال مصر من دول أجنبية أو تسلط حكام أجانب عليها أصابها بالكثير من السلبيات ، فإن ذلك فى نفس الوقت كان له دور فى تنوع وإثراء الثقافة المصرية .

وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تمكن عدد من الضباط المصريين من الثورة على ملكها الأخير فاروق - حفيد محمد على ذى الأصل الألبانى - وأقاموا حكمًا مصريًّا خالصًا بعد قرون طويلة من الحكم الأجنبى .

* * *

عصر المبادئ

لقد أدت حرب عام ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل وهزيمة العرب فى هذه الحرب ، واستياء الشعب المصرى من الملك فاروق ، وتدهور الأوضاع فى البلد ، إلى قيام ثورة عام ١٩٥٢ بقيادة جمال عبد الناصر ، واستقالة فاروق والإعلان عن نظام جمهورى فى عام ١٩٥٣ ، تولّى محمد نجيب منصب رئاسة أول جمهورية مصرية ، ثم تمت إقالته بعد عام من تولّى مهامه من قبل جمال عبد الناصر .

إن جمال عبد الناصر شأنه شأن مصر ، فمثلما تميزت مصر بين الدول كدولة لها معالمها الخاصة ، تميز جمال عبد الناصر من بين سائر الناس ، بكونه إنسانًا مثل عصارة شعب وتاريخ ووطن ، فهو زعيم كبير فى بلد عريق. فقد أنشأ نظامًا جمهوريًّا بدلا من نظام ملكى ، وأثبت للشعب المصرى أنه بالإمكان أن يعيش مستقلا ، عزيزًا وحرًّا . لقد وقف بوجه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى حرب السويس

عام ١٩٥٦ ، من هنا كان من حق الشعب المصرى أن يذرف عليه دموعًا بحجم ماء النيل.

لقد كانت لجمال عبد الناصر مواقف سياسية ، منها دعوته إلى الوحدة العربية ، مواجهة الاستعمار ، دعم حركات التحرر ، وعلى حد تعبير هيكل : إن أول مكسب حققه جمال عبد الناصر هو تحويل مصر من مستعمرة منفعلة إلى بلد فاعل وحر فى الميدان الدولى[(١)] ، خصوصًا فى قيادتها لحركات التحرر فى العالم العربى. ويُعد تأميم قناة السويس واحدًا من أهم إنجازات ناصر.

فى عام ١٩٥٦ هاجمت إسرائيل مع القوات البريطانية والفرنسية مصر ، إلا أن الدول الثلاث أعلنت عن وقف إطلاق النار نتيجة لتهديد الاتحاد السوفييتى بالتدخل العسكرى ، ومعارضة أيزنهاور الشديدة لتلك المؤامرة الثلاثية. وعلى أثر ذلك ، اتحدت مصر مع سورية واليمن تحت اسم الجمهورية العربية عام ١٩٥٨ ، وتم انتخاب جمال عبد الناصر كرئيس لهذه الجمهورية ، غير أن هذا الاتحاد لم يدم - بسبب الخلافات - إلا إلى عام ١٩٦١م. ويعيد هذا الاتحاد والاختلاف إلى الذاكرة القول المعروف « اتفق العرب على أن لا يتفقوا أبدًا ».

من الإنجازات الأخرى لعبد الناصر ، الإصلاح الزراعى ، العمل على بناء قاعدة صناعية ، وإنشاء السد العالى. هذا بالرغم من مواجهة عقبات عديدة نتيجة للتطورات السياسية التى أفرزتها أحداث الشرق الأوسط.

وفى عام ١٩٦٧ ، ألمت بمصر نكسة كبرى ، حين اعتدت عليها ، وعلى سوريا ، القوات الإسرائيلية ، قصف الطيران الإسرائيلى المطارات المصرية ، ودمر القوات الجوية المصرية فى ست ساعات ، واحتل سيناء والجولان السورية ، والضفة الغربية لنهر الأردن وبيت المقدس. آنذاك أعلن ناصر وبصوت مرتعش اعتزاله الحياة السياسية ، حيث كتب [أريك ردلو] بهذا الخصوص قائلا: « كنت حينها فى القاهرة أسكن منذ عدة أيام فى الطابق ١٢ من الفندق ، وفجأة طرق سمعى هتاف كان يزداد

---

(١) من حديث لهيكل مع الكاتبة.

شدة شيئًا فشيئًا حتى تحول إلى عاصفة ، عندئذ ذهبت إلى الشرفة المجاورة فرأيت الناس حول الفندق خرجوا من منازلهم كنمل خرج فجأة من جحوره٠٠ كان الرجال يهرولون باكين وهم حفاة وبملابس البيت٠٠٠ والنساء والأطفال مذعورين ٠٠٠ والجميع يصرخ «ناصر٠٠ ناصر٠٠٠» كانت النساء تنوح والرجال يبكون بصوت مرتفع٠ لقد سافرت إلى كثير من بلدان العالم لكنني لم أشاهد حتى الآن مثل هذا٠٠ إن الشعب الذى اعتبر ناصرًا مسئولا عن اندحار الجيش المصرى ووبخوه ، هم الذين خرجوا بهذه المظاهرات لصالح رئيس الجمهورية المستقيل٠٠٠ حتى عادت قصبات القاهرة والقرى المحيطة بها خالية من سكانها ، وكان الآلاف من الأطفال والنساء والرجال فى طريقهم إلى القاهرة من أطرافها٠٠٠ وراح الكثير منهم يتظاهرون طوال الليل٠٠ كما قصد القاهرة أهالى بور سعيد لعلهم يحولوا دون استقالة الرئيس٠٠»[1]٠

رغم كل ما ذكر ، كان هناك من المصريين من يعتقد بأن جميع مظاهر الفقر والتخلف في مصر ، ما هي إلا نتيجة لعدم النضج والطموحات الطوباوية لهذه الفترة ، وعلى حد تعبير هذا البعض ، أن عبد الناصر لم يوفق فى تشخيص مقتضيات زمانه. وأن ديپلوماسيته كانت تدار من قبل شباب متحمسين تعوزهم التجربة وينقصهم الإطلاع الواعى على أوضاع وأحوال العالم ، كما أنهم دخلوا الحلبة السياسية - فى الغالب- مسلحين بالشعارات والأعلام بدل العلم والتجربة٠ وقد فشلت الديپلوماسية الناصرية فى العالم نتيجة هذا التركيب غير المتجانس ، ولم تنجح إلا فى خلق الأعداء٠ كما أن عبد الناصر لم يوفق فى إيجاد قوة فعَّالة من النخبة الثورية٠

إن من جملة الإجراءات التى لا يمكن تبريرها فى العهد الناصرى ، حل الأحزاب السياسية وقمع معارضيه وسحق جماعة الإخوان المسلمين ، واعتقال رموزها وإعدام شخصياتها البارزة ، ولكن بالرغم من كل ذلك ، منح ناصر عزة قومية وأضفى على العرب قدرة كانوا يفتقدونها قبله٠ لذا يمكن القول إن عصر المبادئ انتهى برحيل ناصر ١٩٧٠ ٠

---

(١) غلام رضا نجاتي ، الحركات الوطنية المصرية ، طهران ، ص١٧٢ ٠

عصر المادة

هل تمكن ناصر من دفع سفينة الثورة إلى حيث يريد؟ وهل نجح فى خلق تيارات واعية من العرب تقوم على حس سياسى؟ لا شك أن العهد الذى أعقب عهد ناصر هو الذى يجيب على هذا السؤال •

لقد انتهى عهد عبد الناصر وعاد كل شيء إلى سابق عهده ، واستقر السادات فى قصر عابدين •••

عندما حقق عبد الناصر النصر فى الثورة ، كانت أولى قراراته هدم الجدار العالى الذى أحاط بحديقة قصر عابدين ، وفتح أبواب هذه الحديقة المليئة بالزهور فى تلك المحلة المكتظة بالسكان فى قلب القاهرة أمام الشعب••• وضم نصف القصر إلى وزارة الدفاع واتخذ من النصف الآخر متحفًا••• غير أن السادات ـ وبعد ثلاث سنوات من رحيل عبد الناصر ـ جعل السياج أكثر ارتفاعًا مما كان عليه• واتخذ قصر عابدين مقرًا لعمله إضافة إلى المقار الأخرى[1]•

واجه السادات باعتباره رئيسًا للجمهورية مشكلتين أساسيتين ، أولاهما تثبيت أركان حكمه ، وثانيتهما مواجهة إسرائيل فى صحراء سيناء•

وقد قام أثناء فترة حكمه بثلاث خطوات سياسية مترابطة هى:

١ـ ايجاد روح الرفض للناصرية فى المجتمع المصرى•

٢ـ اعتماد سياسة الانفتاح الاقتصادى من أجل جذب رأس المال الأجنبى ، خاصة رأس المال والمساعدات الاقتصادية الأمريكية لتطوير القطاع الخاص•

٣ـ التقرب من أمريكا وإضعاف المعاهدات السياسية والعسكرية والاقتصادية المعقودة مع الاتحاد السوفييتى•

وبعد خمسة أشهر من موت عبد الناصر ، أعلن السادات رسميًا رغبته فى توقيع

---

(١) تيرى دجاردن ـ مائة مليون عربى ـ ترجمه إلى الفارسية حسين مهدى (طهران ـ طوس ـ ١٩٧٩ ، ص٣٣)•

معاهدة سلام مع إسرائيل مقابل إعادة سيناء. وقد رفضت إسرائيل هذه الرغبة حيث لم تكن تواجه أى ضغوط سياسية أو عسكرية تدفعها لقبول السلام مع مصر ، مما حدا بالسادات ، لأن يخطط لحرب العاشر من رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣ . وقد استطاع الجيش المصرى فى حرب رمضان ـ أكتوبر١٩٧٣ـ أن يشن هجومًا خاطفًا عبقريًّا ليباغت القوات الإسرائيلية المستقرة علي الضفة الثانية للقناة ، وأن يدخل صحراء سيناء بعد تحطيمه لخط بارليف. كما استطاعت القوات السورية السيطرة على مرتفعات الجولان. لا شك أن هذه الحرب كانت مقدمة السلام ، حيث أراد السادات منها أن يخرج الوضع الديبلوماسى من حالة الركود السائدة آنذاك ، وأن يجر الولايات المتحدة الأمريكية إلى اتخاذ قرارها ، هكذا ونظرًا لهدف السادات السياسى المحدود من الحرب ، فإنها لم تحقق كل الآمال المعقودة عليها ، سواء بالنسبة لكثير من المصريين أو العرب.

هنا يرى المحللون السياسيون أن السادات دخل حرب أكتوبر بسلاح روسى كى يحصل على السلام ، وبعبارة أخرى أنه بحث عن وسيلة كى يستبدل بها النجاح المحدود فى ساحة القتال بمكتسبات على صعيد الأرض والاقتصاد. ولكن هذه الحرب هى فى الواقع ـ رغم ما شابها فى نهايتها ـ مثلت نصرًا عسكريًّا كبيرًا للعرب ؛ لأنها حطمت الأسطورة الإسرائيلية القائلة بأن إسرائيل لا تهزم.

توقفت حرب ١٩٧٣ دون حسم للقضايا المطروحة. كما أن السادات راح يقترب أكثر من الغرب ، فهو بعد أن أخرج الخبراء الروس من مصر عام ١٩٧٢ ألغى فى عام ١٩٧٦ معاهدة الصداقة المصرية السوفييتية.

مصر فتحت أبوابها عمليًّا فى وجه كل العناصر النفعية طبقًا لسياسة الباب المفتوح. أدت هذه السياسة إلى اتساع الشقة بين الأغنياء والفقراء. إن مقارنة إحصائية بين الأعوام ٦٤ ـ ١٩٦٥ أى عهد ناصر الاشتراكى ، وبين إحصاءات عام ١٩٧٩ حيث السياسة الليبرالية التى بلغت ذروتها آنذاك ، تسلط الضوء بوضوح على الفارق فى توزيع الدخل؛ إذ هبط دخل ٦٠ % من أفقر طبقات المجتمع من ٢٨ % إلى ١٩ % بينما هبط دخل ٣٠ % من الطبقة المتوسطة إلى ٥٠ % ، فى حين

ارتفع دخل ١٠ % من الأغنياء من ٣١ % في عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ إلى ٥٨ % في عام ١٩٧٦[١].

في أعقاب سياسة السادات الاقتصادية هذه والتي سببت ارتفاعًا شديدًا في الأسعار ، عمت مصر تظاهرات احتجاجية واسعة وقع خلالها بعض الضحايا ، وبالأخص بعد الزيادة المفاجئة في أسعار ٢٥ سلعة ضرورية.

آنذاك قام السادات بزيارة إلى بيت المقدس عام ١٩٧٧ لإنهاء حالة الركود الاقتصادي ، أثناء الاختلاف حول حضور أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية في مباحثات السلام في چينيف. غير آبه بكل معطيات مؤتمر چينيف.

اعترف السادات بإسرائيل عمليًا من خلال زيارته لها ، وأسفرت تلك الزيارة بعد مفاوضات عديدة - على مستويات وأراضٍ مختلفة - إلى توقيع معاهدة سلام عرفت بمعاهدة كامب ديفيد. هذه المعاهدة لم تخرج مصر من معسكر الدولة المعادية لإسرائيل فقط ، بل أوجدت خللا في المعادلة (العسكرية - السياسية) القائمة بين العرب وإسرائيل.

ومثلما يقول هيكل ، كان هدف إسرائيل الأساسي إخراج مصر من ساحة الصراع وإبعادها عن دورها الآسيوي وحصرها في الزاوية الإفريقية ، هذا إضافة إلى أن خروج مصر من ساحة الصراع سيتيح المجال لإسرائيل للانفراد بساحات الصراع الأخرى مثل سوريا ولبنان وفلسطين[٢].

ومن إنجازات السادات المهمة والتي استهلَّ بها حكمه ، إطلاق سراح معتقلي العهد الناصري وسماحه للمبعدين بالعودة ومباشرة نشاطاتهم .

في عام ١٩٨٠ ، أجرت الحكومة المصرية استفتاءًا بين الشعب المصري لتنصيب السادات رئيسًا مدى الحياة ، وشبهه أحد كبار المسئولين بالخلفاء الراشدين ،

---

(١) د. كمجيان ، ص ١٦٠ .

(٢) محمد حسنين هيكل ، خريف الغضب ، ترجمة محمد كاظم موسايي (طهران ، أمير كبير ، ١٩٨٥) ص ١٩-٢٠ .

ووقع في العام نفسه على معاهدة إقامة العلاقات الديبلوماسية بين مصر وإسرائيل على مستوى سفارة.

من جانب آخر ازدادت قروض مصر الخارجية بشكل لافت للنظر نتيجة سياسات السادات في الأصعدة المختلفة. فبينما كانت قروض مصر ـ طبقًا لتقرير البنك الدولي ـ في عام ١٩٧٣ أي بعد حرب أكتوبر أقل من ٣ مليارات دولار ، بلغت عام ١٩٨١ عندما أصبح مبارك رئيسًا للجمهورية ١٨ مليار دولار[١].

* * *

القاهرة مدينة الألف مئذنة

الاثنين ٢٩ حزيران (يونيو)

إن ما تناولته عن مصر كان يهدف إلى التعرف على ما كانت عليه وكيف هي الآن ، وموقعها في السابق والحاضر؟.

لقد قطعنا المسافة بين طهران والقاهرة خلال ثلاث ساعات ونصف الساعة وكان أول منظر شاهدناه من سماء القاهرة هو نهر النيل. وانشطار النيل في القاهرة يمثل في الواقع رمز انشطار هذه المدينة المملوءة بالازدواجيات العديدة والمتجذرة. فهذا ابن بطوطة يرسم صورة مشابهة للقاهرة في القرن الثامن الهجري بعد أن رآها حيث يقول: « لقد اجتمع في هذه المدينة أناس من كل نوع ، فقير وغني ، عالم وجاهل ، وضيع وشريف ، حسن وسيئ ، إنها مدينة تموج بسكانها وقد ضاقت عليهم بما رحبت لكثرتهم ، ورغم تمادي عمرها فإنها لم تفقد تألق شبابها ولا زالت نجمة سعادتها في قمة تلألؤها »[٢].

والغريب أن مصر مازالت كما وصُفت قبل ألف سنة ، ذات ألف لون. ففاتح

---

(١) محمد أحمد ، «نمو الأصولية في مصر» ، مجلة المعلومات السياسية والاقتصادية ، السنة السابعة ، العدد ١٩ ، ص٢٠ .

(٢) ابن بطوطة ـ رحلة ابن بطوطة ـ جـ١ ، ترجمة محمد علي موحد (طهران ـ مركز النشر العلمي والثقافي) ، ١٩٨٣ ، ص ٢٣ .

مصر عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب واصفًا إياها بقولـه : «... مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ...فإذا هى عنبرة سوداء... فإذا هى زمردة خضراء... فإذا هى ديباجة رقشاء... فتبارك الله الخالق لما يشاء».

ونقل ابن تغرى بردى عن بعض الحكماء أن مصر كاللؤلؤة البيضاء فى الأشهر الثلاثة (تموز وآب وأيلول - يوليو وأغسطس وسبتمبر) حيث يغطى الماء كل الأرض وتبقى المرتفعات تتلألأ كالنجوم... وتكون فى ثلاثة أشهر كالقربة السوداء (تشرين الأول وتشرين الثانى وكانون الأول - أكتوبر ونوفمبر وديسمبر) حيث يغور الماء وتخرج الأرض سوادها. وتكون فى الأشهر الثلاثة (كانون الثانى وشباط وآذار - يناير وفبراير ومارس) كالزمردة الخضراء ... يخرج الزرع والأزهار من كل مكان... وتكون فى الأشهر الثلاثة (نيسان وآيار وحزيران - أبريل ومايو ويونيو) مثل الذهب الأصفر عندما تمتلىء المروج بسنابل القمح[1].

ويشاهد هذا التبدل فى الألوان والأنواع بوضوح فى تاريخ مصر. حيث أشرت فى المقدمة إلى كيفية تحول مصر من لون إلى لون.

أعود إلى القاهرة مدينة الألف مئذنة ، وهو اسم على مسمى. فعندما كنا ننتقل فى أرجائها كان الأذان يرتفع من مآذن مساجد المدينة التى تزيد على الألف ، حتى إنه ليخيل إليك أن سماء القاهرة تنتهى إلى أبعاد أوسع من خلال لحن الأذان الجذاب. لقد كتبت قبل هذا عدة مرات ، أن ما هو موجود فى الدول الإسلامية الأخرى ، ويسمع قليلا فى بلدنا وبالأخص فى المدن الكبيرة ، هو صوت الأذان الذى يرتفع هنالك من جميع المساجد فى وقت واحد ، فيملأ كل فضاء المدينة ، وهل هناك أمر بالمعروف أفضل من هذا؟

تجد المسحة الشرقية فى القاهرة أفضل منها فى أى مدينة أخرى ، فالوجوه والألبسة والمنارات والقبب والأصوات والخطوات والنظرات ، كلها من النوع

---

(١) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١ ، (القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد) ، ص٣٣ .

الشرقي الخالص. الهدوء والنقاء الذى يسود نوع العلاقات الاجتماعية بين الناس يثير التأمل ، حتى كأن هدوء النيل قد جرى فى روح هؤلاء الناس.

لقد تم بناء القاهرة لأول مرة على يد أبي الحسن جوهر الصقلي (أحد مؤسسى الدولة الفاطمية فى أفريقيا الشمالية ومصر) عام (٣٥٩هـ - ٩٦٨م) وهى الآن مدينة واسعة تسع نهارًا ٢٠ مليونًا وليلا ١٤ مليونًا. ومما يشاهد بوضوح فى بعض مناطق هذه المدينة ، شدة الازدحام والفقر ، كما يشاهد فيها أناس من كل نوع ولون ، ففيها ذوو البشرة السوداء من قلب أفريقيا إلى البيض من بقايا عهد المماليك ومرورًا بالوجوه الأوروبية والنصف أوروبية إلى الفلسطينيين والعرب ، ولكن ما يغلب على الوجوه مصريتها وجديتها وعمقها.

إن الذين زاروا القاهرة فى السنوات السابقة اعترفوا بالأصالة الإسلامية لسكانها ، وهذا قبل انتشار الصحوة الإسلامية الأخيرة التى أضافت تغييرًا أكبر لما كان موجودًا.

كتب (براهنى) الذى زار القاهرة فى صيف ١٩٧١ قائلا : « إن ملابس الرجال فى مستواها الأدنى ذات صبغة عربية وفى مستواها الأعلى ذات صبغة غربية ، كما أنه لا وجود لأنواع الماكسى والمينى والميدي فى ملابس النساء. فهى إما ملابس تغطى البدن من الرأس إلى أصبع القدم بشكل عربى ، أو ملابس غربية اعتيادية. فالتفنن فى هذا الأمر يحتاج إلى رأس مال ، والمصرى ليس رأسماليًا ، وخاصة أنه لا الإسلام يحبذ المظاهر غير الضرورية ولا الاشتراكية ، بينما كان نظام حكومة مصر وأساس بناءها الاجتماعى خليط من الاثنين وهو ما يتبنى المظهر الاعتيادى المعتدل[1].

الأمور كما هى عليه فى السابق مع ازدياد فى عدد الملتزمين بالأحكام الإسلامية. فالمرأة إما محجبة بشكل كامل أو غير محجبة ، ولا ترى حجابًا غير كامل[2]. وفى شوارع مناطق المدينة المختلفة ترى بشكل لافت للنظر أن الغالبية هم

(١) رضا براهنى ، « زيارة لمصر » طهران ، الطبعة الأولى ، ص٤٠-٤١ .
(٢) تقارن الكاتبة بما تراه فى طهران من حجاب يظهر جزءًا من شعر المرأة.

مـن الملـتزمات بالحجـاب الإسـلامي٠ وبـدون أى مـبالغة يمكـن القـول إنـك تـرى ٨ محجبات مصريات من بين كل ١٠ نساء ، وفي الوقت نفسه إذا قارنا بين المحجبات في القاهرة مع نساء الدول الإسلامية الأخرى التي شاهدتها حتى الآن ، نراهنّ أكثر وقارًا... والأعمال في القاهرة - كبقية بقاع مصر - في قبضة القضاء والقدر ، كل الأمور تحوّل إلى « إن شاء الله » وإن ما يجرى على ألسن الشعب هو قولهم : « معلهش ٠٠٠لا عليك»٠

إن الشعب المصرى صافٍ وسهل وحميم وعشرى ، وحسب تعبير أهالي إصفهان « غير مبطنين » ٠٠ قالوا في إحدى نكاتهم بعد حرب الأيام الستة عندما قُصفت الطائرات المصرية وهي في مخابئها: قررت الحكومة بناء مطارات سرية كي لا يستطيع العدو قصف المقاتلات المصرية مرة ثانية ، فاختارت منطقة في طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي لبناء أحد هذه المطارات ، فكان الركاب يركبون السيارات العامة ويقولون محطة « المطار السرى »!!٠

* * *

عدم الانحياز ..

الثلاثاء ٣٠ حزيران

لا أريد مناقشة أصل حضور وزير الخارجية الإيرانى لاجتماع دول عدم الانحياز فى القاهرة ، لأننى أعيش فى عالم أصبح فيه التقارب بين الدول فى إطار الاتحادات والمنظمات الإقليمية والعالمية أمراً لابد منه. فالعالم راح يتقارب يومًا بعد يوم نتيجة تطور الاتصالات بين الدول. كما أصبح الحضور الفعال الواسع لمسؤلى الدولة من الطراز الأول فى الاجتماعات العالمية وبيان موقف الجمهورية الإسلامية فى إيران ضرورة لا شك فيها. رغم أن البعض قد أثار الاشكالات حول مجرد زيارة وزير الخارجية إلى مصر ، دون فهم منهم لضرورات عالم اليوم ، ودون تمييز بين أصول وثوابت السياسة الخارجية والمتغيرات الحاصلة. إننى أعتقد بوجوب حضور إيران الفعال والمستمر فى إطار الاتحادات الإقليمية والدولية ، منها حركة عدم الانحياز ، بشكل أوسع بما يتناسب مع دورها وموقعها ومكانتها بين الدول المعروفة بدول العالم الثالث. فليس على إيران أن تقبل - بالضرورة - كل مواقف الدول التى تحضر هذه الاجتماعات ، كما ليس على بقية الدول أن تقبل - بالضرورة - كل مواقف إيران. فرغم كل النقاط المشتركة الكثيرة بين إيران ودول العالم الثالث ، فإن البعض يريد إثارة الشكوك حول هذه المشتركات كى نبقى وحدنا فى جزيرة ، لا لشيء سوى الاختلاف على بعض المواقف السياسية. إن الحقائق السياسية فى المنطقة وفى العالم - مما يؤسف له- لا تتناسب أحياناً مع الآمال ، إلا أنه لا يمكن الصبر إلى أن تتحقق هذه الآمال. فتحرير فلسطين [هدف] لا يمكن لإيران أن تتنازل عنه أبدًا. ولكن أن ننتظر من جميع الدول العربية والإسلامية أن تقبل هذا [الهدف] فهو [أمنية].

لقد عقد الاجتماع الحادى عشر لوزراء خارجية الدول الأعضاء فى حركة عدم

الانحياز للفترة من ٣٠ حزيران (يونيو) إلى ٣ تموز (يوليو)/ ١٩٩٤ بحضور أكثر من ٨٠ وزير خارجية فى القاهرة ، فى هذا الاجتماع الذى حضره ممثلو ١٠٨ من الدول الأعضاء ، تم بحث مواضيع دولية مختلفة منها: دور حركة عدم الانحياز فى العالم المعاصر. استعراض الوضع الدولى منذ اجتماع چاكارتا حتى اليوم ، وحركة عدم الانحياز وتجديد بناء منظمة الأمم المتحدة ، وحركة عدم الانحياز والتعاون الاقتصادى العالمى ، ونزع الأسلحة والأمن العالمى ، ومسألة حقوق الإنسان والتنمية الاجتماعية ، والمسائل الاقتصادية والبيئية ، والمسائل السياسية العامة التى تهم الحركة٠

ومن جملة ما طرح قبل هذا وبعده هو « مستقبل الحركة وعلامة السؤال أمامها » علامة السؤال التى لم توضع من فراغ ، حيث إن الحركة انتظمت بعد أن كان مؤسسوها وقادتها أمثال : (ناصر وتيتو وسوكارنو ونهرو) قد قاد كل منهم ثورة وطنية وتحررية كبيرة وناجحة ، وكانوا فى قمة نجاحاتهم السياسية والوطنية ، وكانت الحرب الباردة ، ونظام القطبين العالمى فى ذروته أيضًا٠ أما اليوم فقد رحل جميع هؤلاء القادة الكبار ، وسقط نظام القطبين٠ وقد تنتهى حركة عدم الانحياز من الوجود أيضًا٠ هذا إضافة إلى أن الكثير من دول هذه الحركة لا تنطبق عليهم حالة عدم الانحياز٠

ومع كل ذلك ، هناك فى الظروف الحالية قادة من بين زعماء عدم الانحياز يمكنهم قيادة الحركة رغم الظروف الحاكمة فى عالم اليوم ، وبإمكانهم من خلال اتخاذ موقف حازم من قبلهم ومن قبل دولهم إنقاذ حركة عدم الانحياز من حالتها الراكدة التى هى عليها الآن٠

لقد سلكنا الطريق الذى يؤدى إلى « مدينة نصر » حيث محل انعقاد اجتماع وزراء خارجية دول عدم الانحياز للمشاركة فى حفل الافتتاح٠ كان الشارع المؤدى إلى محل الاجتماع قد أخلى من المارة بواسطة عسكريين أخذوا أماكنهم على الجانبين بفواصل منتظمة٠ وهو نفس الشارع الذى اغتال فيه خالد الإسلامبولى الرئيس أنور السادات عام ١٩٨١ ٠ وفى الطرف الآخر المقابل للشارع ، يقع قبر السادات وقبر الجندى المجهول الذى يشبه الأهرام المصرية٠

بعد عدة نقاط تفتيش وصلنا إلى مكان الاجتماع ـ الذى كان قد شيد على أرض مساحتها شاسعة ـ حيث يحتوى على أربع قاعات كبيرة فيها أحدث الأجهزة الصوتية والتصويرية، أما المراسم الرسمية فقد بدأت فى الساعة ١٠ صباحًا ـ حسب توقيت القاهرة ـ بمقدمة مختصرة ألقاها المبعوث الخاص لرئيس جمهورية إندونيسيا، ثم جاء الدور لكلمة الافتتاح التى تحدث فيها الرئيس حسنى مبارك عن تاريخ وإنجازات الحركة فى الماضى ، وقال فى جانب من خطابه: «بينما كانت المعادلات الدولية تدور حول مسائل الشرق والغرب، تدور اليوم حول قطبى الشمال والجنوب، وفى الظروف الحالية يجب أن يسود التعاون والمسؤلية المشتركة بدل الفرقة والصراع ، فى هذه الظروف يجب على الحركة أن تجيب على المتغيرات العالمية ، وهذا يستلزم الالتفات إلى نقطتين:

١ـ أن تبقى الحركة باعتبارها ممثلاً للمصالح العامة للدول النامية، وعلى هذا الأساس تنسق خطوطها الأساسية مع مجموعة الـ ٧٧ ،

٢ـ تعميق قدرة الحركة على الدخول فى مباحثات واقعية مع كل الأطراف العالمية ، وإجراء مباحثات شاملة تتناول الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية »،

بعد خطاب الرئيس مبارك ، طالب وزير الخارجية الكويتى المشاركين اعتبار كلمة مبارك وثيقة رسمية لدى الحركة بعد أن أثنى على ما فيها، ثم تحدث ممثلو المجموعة الأفريقية والآسيوية وأمريكا اللاتينية وأوروبا، واستمرارًا لبرنامج اليوم الأول ، التقى الرئيس مبارك برؤساء الوفود بشكل سريع، ثم أعطيت استراحة قصيرة ترأس بعدها عمرو موسى الاجتماع، وتحدث ممثلو بعض الدول عن مواقف دولهم تجاه المسائل المهمة التى تواجه الحركة،

كان من جملة المتحدثين عصر اليوم الأول الدكتور ولاياتى ، حيث أشار إلى زيادة شدة الصراعات بين الدول بعد انتهاء الحرب الباردة ؛ رغم كل الآمال والتوقعات الموجودة، كما أكد على دور حركة عدم الانحياز على صعيد منع وتخفيف وحل الصراعات فى المنطقة والعالم وإزالة آثارها المؤلمة ، وأكد أهمية دور الحركة السياسى من خلال إعلانه عن موقف إيران الصريح بشأن الدور المستقبلى لحركة عدم الانحياز والحلول المقترحة لها وقال: «رغم أننا نوافق على ضرورة زيادة

التنسيق والتعاون بين الدول النامية ، لكننا نرفض نظرية الاكتفاء بمجموعة العالم الثالث؛ ذلك لأن المصالح المشتركة لدول العالم فى حالة تطور ولا تنحصر فى الحدود الاقتصادية والتنموية فقط ، بل هى تخوض حركة تنموية عبر المواجهات السياسية والاجتماعية ، خاصة خلال فترتها الانتقالية الحالية ».

إن الاجتماعات الدولية تعد فرصة مناسبة للتحدث مع شخصيات سياسية من الطراز الأول فى دولهم. والمراسل يكون عادة مترصدًا لأى فرصة سانحة للتحدث مع تلك الشخصيات.

غير أنى لم أجد خلال الفترة المسائية لليوم الأول مراسلا إيرانيًّا فى قاعة الاجتماع إلا ما ندر ، فى حين تجد المراسلين العرب وممثلى الوكالات الغربية لم يهدأ لهم بال لحظة واحدة.

دار بينى وبين بعض الإخوة نقاش حول مكانة المراسل والصحفى فى إيران بالمقارنة مع ما هو موجود فى الدول الأخرى. فقلت: مما يؤسف له أن المراسلين والصحفيين الإيرانيين لم يقدروا مكانتهم. فقال أحد الإخوة : لو غضضت الطرف عن بعض الاستثناءات وأخذت المجموعة التى أرسلت إلى القاهرة من المراسلين والصحفيين بعين الاعتبار ، فمن منهم قد حضر الاجتماع - باستثناء قليل منهم بعدد أصابع اليد الواحدة- فى حين يمكنهم أن يحصلوا على أدق المعلومات من وزراء الخارجية المشاركين؟ من منهم مارس عمله الخبرى كى نطمح أن يكون لهم دور ومكانة؟.

لقاء وزير خارجية اليمن

بعد اللقاء الذى تم بين وزير خارجية اليمن وبين الدكتور ولاياتى ، سنحت لى فرصة قصيرة للحوار مع الوزير اليمنى وسؤاله عن تحولات بلاده. حيث قال عن الحرب الجارية فى بلاده: « لا أريد إلقاء اللوم على شخص أو دولة معينة أو تحميل أحد المسئولية بشأن ما حدث فى اليمن. إن أزمة اليمن أمر داخلى حيث أرادت مجموعات يمنية بقيادة - على سالم البيض - فرض الانفصال بالقوة. لذا فرض علينا الوقوف بوجوههم ، ومن حسن الحظ قد هرب أكثرهم من عدن إلى حضرموت أو

خارج البلاد، وهم الآن متابعون من قبلنا » وأضاف قائلا: « إن ما يحدث في اليمن هو حالة تمرد، فأحد الطرفين حكومة اليمن القانونية التي اكتسبت شرعيتها من خلال انتخابات ٢٧ إبريل ١٩٩٣ ، وثانيهما أشخاص يريدون التمرد على هذا النظام القانوني، لذا وجب علينا - قوى الحكومة القانونية- الوقوف بوجه هؤلاء، ولا يمكن القول أنه يجب على الطرفين المصالحة والاتفاق؛ ذلك لأن أحدهما متمرد على حكومته القانونية، وهذه الحكومة تريد الوقوف بوجه هذا التمرد، فلو حدث مثل هذا في أي من بلدان العالم هل سيقولون يجب تصعيد هذه المسألة إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي؟ هل أحيلت مسألة بادر ماينهوف أو جيش التحرير الأيرلندي أو أي تمرد آخر إلى مجلس الأمن؟ إنه شأن داخلي والحكومة القانونية قادرة على إعادة سيادة القانون من جديد»،

* * *

مسجد رأس الحسين

« من مزارات مصر المباركة ضريح رأس الإمام الحسين بن علي، حيث أصبح مزارًا مقدسًا وله منزلة عظيمة ، ولبنائه باحة واسعة ورواق جميل ، وعلى أبوابه نقوش فضية تتناسب مع ما ينبغي أن يعظم به مقام كهذا »[1].

في الساعة الثامنة مساء تحركنا إلى مسجد رأس الحسين ، حيث موئل أهل مصر الذين تضرب جذور ارتباطهم وتعلقهم بأهل البيت في أعماق التاريخ ، فحبهم لأهل البيت وحرارة التمسك بهم بدأت منذ اختيار مالك الأشتر لحكومة مصر ، وحضور زينب الكبرى إلى القاهرة وكذلك السيدة نفيسة، وقد تألق هذا الحب خلال فترة الحكم الفاطمي لمصر،

إن حكم الفاطميين في مصر - وهم يرون لأنفسهم الانتساب لفاطمة الزهراء - وانتساب الأزهر لاسم الزهراء ، أظهر حب المصريين لأهل البيت والتمسك بهم ، وخاصة أن التوجه العرفاني والفلسفي في مصر مهد السبل لهذا الحب ، وكذا وجود

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٢ .

ضريح الإمام الشافعي والسيدة زينب والسيدة نفيسة ، وانتشار التكايا وزوايا الطرق الصوفية فيها ، كل ذلك كان له الدور الفَعَّال في خلق حالة التمسك بالأولياء لدى المصريين بشكل عام وأبناء القاهرة بشكل خاص ، وهنا تعني الولاية عدة معان ، منها أن يشعر الإنسان بعلاقته القديمة بهذه الأرض حيث يعتبر مصر بيته وولايته. أو أن هذه البلاد هي بلاد الولاية.

وعلى أية حال فإن مسجد رأس الحسين اليوم يجسّد هذا العشق وهذا التعلق.

إن ما هو معروف عن مصر أنها غير شيعية من الناحية الفقهية ، غير أن وجدانها شيعي ، فلا زال المصريون متمسكين على صعيد إحياء الأعياد وشهر رمضان بعادات العهد الفاطمي ، وإضافة إلى الزيارة الدائمة للأضرحة الشريفة الموجودة في مصر من قبل أبناء الشعب ، وتداول اسم علي بعد اسم محمد في أوساط الذكور وفاطمة الزهراء في الوسط النسائي ، يمكن تسمية أهالي مصر: [شيعة الأفراح] فهم ليسوا كالإيرانيين الذين يقيمون مجالس العزاء بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام الحسين في العشرة الأولى من شهر محرم.

لربما كان الفرق بين المصريين والإيرانيين كالفرق بين حافظ إبراهيم ومولوي.

اقترب وقت أداء صلاة العشاء والمسجد مكتظ بالوافدين بشكل مستمر ، غير أن دخول الوفد الإيراني وعلى رأسه وزير الخارجية إلى المسجد كان قد تزامن مع انتهاء الساعة المحددة لدخول النساء ، وبما أني كُنت أحد أعضاء الوفد ، فإنه طبقًا لما هو معمول به لا ينبغي دخولي المسجد ، إلا أنه بعد نقاش وجدال وسعي بذله الإخوة في وزارة الخارجية سمحوا لي بالدخول.

ذهبنا أولا إلى متحف المسجد الذي كان يحتوي على مخلفات تنسب إلى الرسول ﷺ والأئمة ﷺ وقد تحدث لنا عنها أحد مسئولي المسجد بشيء من التفصيل ، منها الشعرة المنسوبة للرسول ﷺ والتي يمكن مشاهدتها بالأجهزة المكبرة. وسيف منسوب إلى الإمام الحسين ﷺ ومصاحف قديمة ، وغيرها.

قرأت زيارة عاشوراء عند مقام رأس الحسين ﷺ وبعد ذلك رحب إمام المسجد بحضور وزير الخارجية والوفد المرافق له. ثم عبر عن عمق تعلقه وعشقه للإمام

الحسين ﷺ وقال : إن العالم الإسلامى كله يفتخر بالإمام الحسين. وواصل المشرف على المسجد حديثه عن الإمام الحسين وقال: كانت مصر شيعية قبل أن تكون إيران شيعية[١]. وهنا لابد من ذكر الخطوط الجميلة التى كتبت على جدران المسجد فى مدح أهل البيت والتى تؤيد حديث كل من إمام المسجد والمشرف عليه.

وفى الختام بدأ الدراويش الذين أحاطوا بالمسجد بتلاوة الأذكار تلاوة تثير الحماس وتهيج الأحاسيس ، ترافقها حركات تتناسب مع الصوت المعنوى الشجى وهم يرددون : يا الله... فكنت كلّى عين وأذن.

وبعد دقائق تركنا المسجد وكلى شوق للاستماع لذكر هؤلاء الدراويش.

* * *

ضريح السيدة نفيسة

الأربعاء ١ تموز

كان من المقرر أن نتجول فى المدينة قبل حلول وقت الاجتماع ، وبدء البرامج العملية المخصصة. وكان لدينا من الوقت ساعة ونصف ، فتوجهنا فى البداية إلى ضريح السيدة نفيسة (رضى الله عنها) وهى بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على ابن أبى طالب. كان أبوها قد عيّن من قبل الخليفة العباسى المنصور حاكمًا للمدينة لمدة ٥ سنوات ثم ألقاه فى السجن وصادر كل ممتلكاته.

سافرت السيدة نفيسة (رضى الله عنها) مع زوجها إسحاق بن الإمام الصادق ﷺ إلى مصر وتوفيت هناك فى شهر رمضان فى أوائل القرن الهجرى الثالث[٢].

إنها صاحبة كرامات كثيرة ومستجابة الدعوة. فهى امرأة ربانية ، وكلامها سُلّم يصعد به إلى السماء ، أما بيتها فملجأ للمحرومين الذين لا ملجأ لهم. لقد عاصرت الإمام الشافعى وصلّت على جنازته بعد وفاته.

---

(١) أصبحت إيران شيعية منذ قيام الدولة الصفوية فى القرن السادس عشر.

(٢) ابن تغرى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١ ، ص٣٣ .

عندما رحلت إلى بارئها ، أراد إسحاق نقل جسدها إلى المدينة المنورة ، فتجمهر الناس بدموع جارية وألسنة مطالبة بدفنها في مصر. فواراها التراب في دارها التي عاشت فيها ، وذلك في شهر رمضان ، فبكاها الناس وهم صيام[١].

وبمرور السنين ازداد ضريح السيدة نفيسة عظمة وروعة. فكأنها جالسة إلى زوارها ، يسمعون حديثها وتمسح هي الأخرى دموعهم ، إنهم ومنذ الأمد القديم يعتقدون بأن الدعاء عند قبرها مستجاب[٢] ولا زالوا.

كنت قد سمعت من قبل ، أن بعض النساء في المعسكر الشرقي يعملن منظفات في الشوارع ، بينما لا يحصل هذا في الدول الإسلامية والعربية ، حتى رأيت أمام ضريح السيدة نفيسة امرأة تكنس الشارع ، وفي الجانب الآخر كانت امرأة متوسطة العمر تضع أمامها باقات ورد ذابل وهي مشغولة بترتيبها من أجل بيعها.

* * *

جيل أهل القبور

اتجهنا إلى مقابر القاهرة ، هذه المقابر التي قرأت في بعض المقالات أن ما يقرب من ثلاثة ملايين من أبناء القاهرة يعيشون فيها ، يولدون فيها ، وفيها يترعرعون ، وبين قبورها يموتون ، ولكنني تصورت أن ما قرأته بهذا الصدد هو من قبيل إلقاء الكلام على عواهنه.

لكن الواقع كان يحكي عين ما قرأت ، فقد اختارت - أو اضطرت - عائلات للسكن في القبور ، حيث ولد أبناؤهم فيها ودفنوا فيها أيضًا ، وتشاهد بين هذه المقابر مدارس ومساجد ودكاكين. إنها شكل - باختصار - مدينة بكاملها. مع العلم بأن هذه المسألة لم تكن طارئة كي يتصور البعض أنها إحدى نتائج الفقر الاقتصادي. كتب ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري بعد أن زار القاهرة ومقبرتها قائلا: « إن قرافة مصر من الأماكن المقدسة جدًّا. وقد نقل القرطبي وغيره حديثًا في فضلها وأنها نفس

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١ ، ص٢٧٣-٢٧٤ .
(٢) ابن عماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، جـ٢ ، ص٢١ .

الجبل العظيم الذى سيكون طبقاً للوعد الإلهى إحدى بساتين الجنة. لقد بنى أهالى مصر قببًا جميلة يحيط بها جدار كى تكون المقبرة كبيت ، ويبنون فى داخلها غرفًا ، ويأتى قراء القرآن يتلونه فيها ليلا ونهارًا بصوت جميل ، ويبنى بعضهم إلى جوار القبر مدرسة وتكية للدراويش. ويذهب أهالى مصر ليالى الجمعة مع نسائهم وأطفالهم لزيارة المقابر المشهورة. كما يتواجدون فيها ليلة النصف من شهر شعبان ، ويجلب الباعة الجائلون معهم أنواع المأكولات »[1].

حول المقابر وفى أطرافها تسمع ضجيج النساء والرجال والأطفال ، وترى الفقر واضحًا على المارة من خلال وجوههم الشاحبة التى امتد إليها العوز وأنهكها منذ الطفولة ، فالفقر يمكن تحمله إن لم يتجاوز الوجه والظاهر واللباس والطعام والمنزل ، ولكن شره وفساده يبدأ عندما تحين لحظة ماسة لعزة وروح الإنسان.

فالإنسان يرتعش قلبه حينما ينظر فى أعماق عيون الأطفال والعوائل التى أصابها الفقر ، ويهتز ضميره حينما يلقى نظرة على الموت الأحمر على حد تعبير أمير المؤمنين على ﷺ القائل: « الفقر الموت الأحمر».

* * *

---

(١) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص٣٢ .

اجتماع اليوم الثانى

تناول وزراء خارجية الدول الأعضاء فى حركة عدم الانحياز فى اليوم الثانى من اجتماعهم ما يتعلق بإعادة بناء منظمة الأمم المتحدة ونزع الأسلحة. وفيما يتعلق بالموضوع الأول ، طالب الأعضاء بديمقراطية أفضل فى مجال اتخاذ القرارات فى المنظمة المذكورة.

كانت اقتراحات الجمهورية الإسلامية فيما يتعلق بموضوع إعادة بناء الأمم المتحدة تتمحور حول: ضرورة مراعاة أصول الديمقراطية فى مجلس الأمن ، والحيلولة دون سوء استخدام حق النقض [الفيتو] . وضرورة الشفافية فى قرارات مجلس الأمن ، والتطبيق الكامل لقرارات المنشور المتعلق بضرورة قبول مجلس الأمن لرقابة الجمعية العامة. وكذلك ضرورة الالتفات إلى مساواة الدول ، واعتبار هذه النقاط أساسًا لمنهج إعادة بناء الأمم المتحدة.

أما موقف إيران من نزع الأسلحة الفتاكة ، فيعتمد على الأسس التى جاءت فى كلمة الدكتور ولاياتى.

« إن تمديد معاهدة عدم نشر الأسلحة النووية مشروط بتأمين مطالب حركة عدم الانحياز وإزالة السلاح النووى من الدول ، ومنها إسرائيل.

وتعهد الدول ذات السلاح النووى بعدم تهديد الدول التى تفتقده نوويًا ، وإكمال منع إجراء التجارب النووية. وكذا تأييد اقتراح كل من مصر وإيران باعتبار منطقة الشرق الأوسط منطقة منزوعة السلاح النووى. والاعتراض على طريقة منع تصدير التكنولوچيا من جانب واحد. وتحديد موعد تدمير الأسلحة النووية. وإعطاء ضمانات أمنية للدول غير النووية. والاستفادة من الطاقة والتكنولوچيا النووية للأغراض السلمية طبقًا للمعاهدات الدولية من قبل الدول الأعضاء ».

محاورة وزير الخارجية السورى

قبل عامين سنحت لى فرصة للحديث مع فاروق الشرع فى جاكارتا حيث قال لى: لدى فرصة لا تتجاوز ١٠ دقائق.

قلت له: إنها غير كافية لبحث المسائل بشكل جيد.

فأجل اللقاء إلى ما بعد انتهاء الاجتماع.

ولكننى لم أعثر عليه - مع الأسف - بعد الاجتماع.

أما فى القاهرة فقد ذهبت إليه بعد لقائه بولاياتى وسألته هل لديك وقت للحديث؟ قال : هل أنت إيرانية؟

قلت : نعم.

فتذكر موعده معى قبل عامين ، عندما فاجأنا عشرة مراسلين عرب وغيرهم ، فأحاطوا بوزير الخارجية السورى وتوالت الأسئلة عليه من قبلهم. وقبل أن يتم الوزير أجوبته ، طرحت سؤالى الأول ثم الثانى وبقيت الأسئلة الأخرى دون أن ترى النور.

لقد أعلن الوزير عن دعم بلاده للمقاومة النشطة ضد إسرائيل فى جنوب لبنان ما دام الجنوب محتلا. وضمن إدانته لعمليات الاختطاف فى جنوب لبنان ، أكد أن هذه الأعمال تدل على حماقة إسرائيل. كما أكد على سيادة السلطات اللبنانية على الجنوب اللبنانى. وقال أيضًا لا يوجد أى تقدم فى مباحثات السلام بين سوريا وإسرائيل ، وما أن أراد طرح توضيحات أكثر ، أخذت بتلابيبه ثلاثة أو أربعة أسئلة أخرى.

محاورة وزير خارجية قطر

لقد حصلت على فترة قصيرة لمحاورة وزير الخارجية القطرى فتحدث عن المنطقة وتحقيق أمنها. حيث ترى بلاده أن دول المنطقة هى التى تؤمن أمن الخليج. وترى أيضًا إمكانية الاستفادة من الأصدقاء لنفس الغرض. وعن علاقة بلاده بإسرائيل ، فقد ذكر المقدار الذى طرحته الأجهزة الإعلامية ، أما فيما يتعلق بمَدّ أنبوب غاز من قطر إلى إسرائيل فقال : لم يتخذ موقف بهذا الشأن حتى الآن.

لقاء ولاياتي وموسى

الخميس ٢ تموز

كان من المقرر أن أذهب إلى زيارة السيدة زينب مع الوفد الإيرانى صباح يوم الخميس ، ولكن ذلك لم يحصل حيث تواصلت اجتماعات الخبراء لمناقشة المواضيع المختلفة. أما وزراء الخارجية فقد انشغلوا بأحاديثهم الثنائية على هامش الاجتماع ، وقد كان للدكتور ولاياتى فى هذا اليوم عدة لقاءات ، ولكنها جميعًا لا ترقى إلى لقائه مع عمرو موسى.

منذ اليوم الأول كان الجميع يتساءلون هل سيلتقى ولاياتى مع موسى أم لا؟ خاصة بعد الخبر المفتعل الذى نشرته إحدى صحف إيران الصباحية ونقلته عنها وكالة الأنباء الفرنسية. كما شاركت فى هذه الضجة الصحف المصرية فطبعت على صفحاتها أخبارًا متناقضة عن اللقاء. ومما زاد الأمور تعقيدًا إلغاء لقاء يوم الأربعاء بين الوزيرين.

لقد شغل ذهن جميع المراسلين سؤال : ما هى المسائل التى سوف يناقشها الطرفان !؟ .

وحينما عقد اللقاء جلسنا فى الطابق الذى يلى الاجتماع ... وطال لقاء الطرفين بالمقارنة مع لقاءات ولاياتى الأخرى خلال الأيام السابقة. لقد تحدثا من الساعة العاشرة حتى الساعة الحادية عشرة صباحًا وتناولا مسائل مختلفة. وأشاد ولاياتى باللقاء ووصفه بكونه إيجابيًا وهو يتحدث إلى المراسلين الذين تجمعوا حوله ، كما تعرض فى حديثه معهم إلى الخطوط العريضة التى تمت مناقشتها.

قلت للسيد محمد مسئول مكتب رعاية المصالح الإيرانية فى مصر : هل يمكن لنا اللقاء بعمرو موسى ؟

قال: لماذا لم تأتى إلى الطابق الذى كنا فيه ؟

قلت: لم يبلغنا أحد بإمكانية صعودنا إليكم.

قال: كنا أدرجنا اسمك مع أسماء من يسمح لهم بالصعود من المراسلين.

قلت: لا علم لى بهذا.

لقد تقرر أن التقى مع عمرو موسى لبضعة دقائق. فذهبت فورًا إلى مكتبه وبمجرد أن وصلته دخل وزير إحدى الدول الأفريقية أيضًا.. قال مسئول قسم الإعلام فى وزارة الخارجية المصرية إن الوقت ضيق جدًا، وليس أمامك إلا عدة دقائق.

قلت: لا يمكن هذا.. لقد كان لى لقاء سابق مع السيد عمرو موسى ولكنه لم يستوفِ غرضه لضيق الوقت أيضًا.. فإن كان للسيد موسى وقت فيرجى تحديد موعد في يوم آخر بعد انتهاء الاجتماعات، فلربما تتاح لى فرصة، ونتمكن من اللقاء به، فتقرر أن يحدد موعداً ثم يخبرنى به.

ونظرًا لزيارة موسى لتونس لحضور مؤتمر القمة الأفريقية، فقد حدد الموعد بعد أسبوعين، وبما أننى لم أكن قادرة على البقاء هناك هذه الفترة، فقد ألغى اللقاء.

* * *

أربعون عامًا من عدم الاستقرار

لقد سادت العلاقات الإيرانية المصرية خلال الأربعين سنة الماضية حالة من عدم الاستقرار بشكل متزايد، وتكاد تكون أسباب ذلك واحدة، نتيجة لسياسات ومواقف كل منهما، فعلاقة مصر وإيران خلال فترة حكم عبد الناصر تميزت بالبرود باستثناء فترة رئاسة مصدق - للحكومة الإيرانية - القصيرة. والسبب فى ذلك يعود إلى سياسات الشاه التى تحولت بعد مؤامرة ١٩ آب (أغسطس) إلى حلقة من حلقات السياسات الأمريكية فى المنطقة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أثرت سياسة ناصر المعادية للاستعمار والطامحة للاستقلال تأثيرًا كبيرًا فى توتر العلاقات بين الطرفين أيام الشاه.

لقد شهدنا عودة العلاقات بين الجانبين ثانية بعد رحيل عبد الناصر واقتراب السادات كثيرًا إلى الغرب بشكل عام وإلى أمريكا بشكل خاص، غير أن تزامن التوجه الثورى فى إيران مع مباحثات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل أدى إلى حصول منعطف فى العلاقات. ففى الوقت الذى يخرج الشعب الإيرانى نفسه فى نهاية

السبعينيات من دائرة النفوذ الغربى ، ويقرر مصيره وفق منهج جديد ، يقترب السادات أكثر فأكثر من الغرب.

إن انتصار الثورة الإسلامية وخروج إيران من دائرة النفوذ الغربى من جهة ، وتوقيع معاهدة كامب ديفيد واقتراب مصر من أمريكا من جهة أخرى ، شنج العلاقات بين البلدين مرة أخرى. هذا إضافة إلى أن توقيع معاهدة كامب ديفيد من قبل مصر ؛ جعل الإمام الخومينى أن يصدر أمره إلى الحكومة الإيرانية آنذاك بقطع العلاقات الديبلوماسية مع مصر عام ١٩٨٠ نظرًا لما شَخَّصَه من نتائج سلبية لهذه المعاهدة.

فالتداعيات التى انبثقت عن كامب ديفيد خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ، واندلاع حرب الخليج ، وبروز الخلافات العربية ، أدت إلى إخراج سيناريو جديد للمساومة فى المنطقة بشكل نشهد الآن أحد فصوله المسمى بالإدارة الذاتية المحدودة فى غزة وأريحا.

لقد رأى الإمام الخمينى فى عام ١٩٨٠ أن مصر إن خرجت من المحور العربى ودخلت فى المدار الأمريكى والإسرائيلى ، فإن جميع الدول العربية شاءت أم أبت ستلحق بها.

وعلى كل حال فإن التحولات الجديدة لمنطقة الشرق الأوسط تستلزم دراسة عميقة بعيدة عن الضوضاء خاصة بعد أحداث العقد الأخير.

يؤكد الواقع بأن الحكومات كالأمواج ، فعندما تذهب موجة تحل محلها أخرى ، أما الشعوب فهى الباقية. لذا لا ينبغى تحليل العلاقات بين بلدين وشعبين فى إطار فترة محدودة ، خاصة أن مصالح أو مضار قطع أو إقامة علاقة جديدة بين بلدين تحتاج إلى دراسة لجميع جوانب المسألة ، ومن قبل أصحاب الاختصاص وباستمرار ، هذا إضافة إلى أن علاقات التعاون بين دول المنطقة وبين دول العالم تعتبر أرضية مناسبة لتعاون البلدين من أجل الأهداف المشتركة.

حوار مع مسئول القسم السياسى لمنظمة التحرير الفلسطينية[1]

لقد حصلت اليوم الخميس على فرصة للقاء المسئول السياسى لمنظمة التحرير الفلسطينية - حيث تحدث فى هذا اللقاء فاروق قدومى عن أبعاد اتفاقية غزة - أريحا وموقفه منها، وسلط الضوء على أسباب مخالفته لهذه الاتفاقية ، فرغم أنه يرى أن توقيع هذه الاتفاقية فرض من قبل الدول الكبرى ، وكرسته ظروف عالمية عديدة ، إلا أن الحصول على اتفاقية أفضل كان ممكنًا ؛ لو أظهر الطرف الفلسطينى صبرًا أكبر.

* * *

(١) النص الكامل لهذا الحوار مطبوع فى صحيفة « إطلاعات » لعام ١٩٨٦ .

الآثار التاريخية

الأهرام الثلاثة

هناك مثل مشهور يقول : « العالم كله يخاف من الزمان ، بينما الزمان يخاف من الأهرام » ومع أن كل شيء يؤول إلى التغيير والفساد والزوال بمرور الزمن ، إلا أن مرور الزمن لا يقلل من عظمة أهرام مصر .

لقد قررنا - نحن المراسلون القابعون فى محل الاجتماع - أن نتوجه صوب الأهرام ، فوصلنا إليها فى تمام الساعة الثانية عشرة والنصف ، أى فى عز الظهيرة[1]. كانت الشمس محرقة ، والنسيم الهادئ يعبث بذرات الرمال مما أدى إلى امتلاء عيوننا بحبيباتها ، غير أن الأهرامات الثلاثة العظيمة كانت تهون علينا ذلك ، حيث كنا نتأمل فيها وفى العمال الذين جلبوا صخورها من بعد مئات الكيلومترات إلى هنا. وكذلك تمثال أبى الهول العظيم الذى كان ينظر بهدوء إلى المستقبل مستغرقًا فى تفكير عميق لماضٍ سحيق.

تعد الأهرامات الثلاثة من أقدم وأعظم عجائب الدنيا السبع.

« وقد لفتت الأهرامات أنظار كل من مر بمصر على مدار آلاف السنين ، وكتب عنها كل من حاول التأريخ لهذا البلد ، وفى تلك الأزمنة لم يكن لعلم المصريات وجود ولو على مستوى الإرهاصات ، لذلك كانت الحقائق ممتزجة بالأساطير والحكايات المتواترة ، ولهذا احتوت كتابات البعض على معلومات مشوشة تصل أحيانًا إلى حد الخرافة ، لكنها كانت كافية لإظهار مدى اهتمام السابقين بها من جهة ومدى قدرتها على إثارة الخيال من جهة أخرى ...

يقول ول ديورانت : إن وراء بناء الأهرام باعث دينى.

---

(١) كلمة متداولة عند المصريين ، تقال إذا بلغت حرارة الشمس أعلاها.

أما ابن بطوطة فقال: « يقال إن جميع العلوم التي وجدت على الأرض قبل طوفان نوح ترجع إلى هرمس الأول الذى سكن مصر العليا، وكان يسمى أخنوخ أيضًا، وهو إدريس (عليه السلام) وهو أول من بحث فى حركات الفلك والجواهر العلوية ، وأول من أسس المعابد وأخبر الناس بخبر طوفان نوح، وقد بنى الأهرام مقابل المعابد خوفًا منه على العلم والصناعة من الضياع ، حيث استخدم فيها فن كل الصناعات والآلات طبقًا لمفاد كافة العلوم كى يجنبها خطر الزوال »[(١)] ومن جملة الروايات التى ذكرت بناء الأهرام أيضًا رواية تقول إن أحد ملوك مصر قد رأى منامًا مخيفًا قبل طوفان نوح ، لذا رأى من اللازم عليه بناء هذه الأهرامات فى الجانب الغربى من النيل لتحفظ فيها كافة علوم ذلك الزمان وكذلك أجساد الملوك[(٢)].

ويعتقد ول ديورانت بأن أهم ما يميز الدين المصرى هو الأهمية التى أولاها لفكرة الخلود، حيث كان المصريون يعتقدون بأن كل النباتات والحيوانات والناس يستعيدون الحياة ثانية بعد الموت... كما يستعيدها النيل[(٣)]، وأضاف قائلا : كانت أهرام مصر قبورًا ثم تحولت شيئًا فشيئًا من صورتها الأولى إلى ما هى عليه اليوم، وكان الملك آنذاك - كسائر الناس- يعتقد أن فى كل جسم حى توأمًا له يسمى [كا]، وإن شكل ووضع وكبر حجم الهرم يعد إحدى وسائل البقاء والمقاومة للموت لأن [كا] يصور الجسد بصورته الصغيرة، ومن هنا لابد من كسوته وإطعامه وتقديم الخدمات له بعد موت الجسد ، إضافة إلى هذا ومن أجل الإبقاء على الميت ، يوضع فى تابوت من صخر ويحنط ليصبح مومياء.

يحتوى أكبر الأهرامات - أى هرم خوفو - على ٢,٥ مليون صخرة يصل وزن بعضها إلى ١٥ طنًا بينما متوسط وزنها ٢,٥ طن ، ويغطى هذا الهرم مساحة من الأرض تبلغ ٤٦,٠٠٠ متر مربع ولا يزال تابوت الفرعون داخله ، ولكنه خال لأن ما به سُرق من قديم الزمان.

---

(١) رحلة ابن بطوطه ، ص٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص٣٦ .

(٣) قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ص٢٤١ .

إن الأهرام علامة واضحة على اعتقاد المصريين بالمعاد ، وأن البعث والنشور هو المصير المحتوم لكل الكائنات. ولهذا حنطوا الأجساد كي تبقى سالمة عند بعثها.

ما إن وصلنا منطقة الأهرام حتى أحاط الأدلاء بنا وراحوا يعرضون علينا ركوب الخيل والإبل ، أو الدلالة والتوضيح لما هو موجود هناك. فغمرونا بأدب ضيافتهم ، لذا ما كانت لنا حيلة سوى الاستجابة ، حيث كان أحدهم بارعًا في توضيح مختلف الأماكن الأثرية ، فطاف بنا حول الأهرام بلسانه المعسول. وأخذنا إلى أماكن قال إن رؤيتها غير مسموح بها لأي زائر ، ولكنه سمح لخمسة أو ستة منا برؤيتها استثناءً ، ابتداء من الغرفة الشخصية لبنت فرعون حتى مقابر العمال الذين فقدوا أرواحهم وهم يحملون صخور الأهرام.

أبو الهول

«... تجد زاوية رأس أبي الهول متناسقة مع الأهرامات كما إنك تجد الآثار الضخمة مجتمعة ابتداء من حجرة المقبرة التي في داخلها وانتهاء بالجثة المحنطة فيها ، قادرة على تنفيذ مهمة الاحتفاظ بالنعش إلى الأبد»[١].

يمثل أبو الهول حسب قول ول ديورانت- صفات أحد الفراعنة الأبدية ، وربما صفات خفرع. إنه إضافة إلى كونه رمزًا للقوة والعظمة ، يعبر عن مواصفات وحالات معينة حيث ترتسم على وجهه الجامد ابتسامة خفيفة لم تفارقه منذ خمسة آلاف سنة. ويبدو أن ناحته فنان مجهول لملك اتخذ من التمثال رمزًا له. على أية حال ، يحسن أبناء البشر جميعًا التعبير عن الإنسان ، إنه لوحة أخرى لموناليزا على صفحة صخرة[٢].

نقل أن الخرافة عمت مصر القديمة ، فنحت أهلها -كالآشوريين واليونانيين- تماثيل للتعبير عنها.

---

(١) أندريه مالرو ، ضد الخواطر ، ترجمة أبي الحسن النجفي ، رضا سيد حسيني ، طبع طهران ، ص٦٥ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ص٢٢٢ .

تدل التماثيل المصرية على شكل الفراعنة المصريين وتبرز قدرتهم ، وأشهرها وأقدمها تمثال أبى الهول.

إن كلمة سفينكس لفظة يونانية الأصل من الراجح جدًا أنها أخذت من كلمة Sphingein والتي تعني الربط والاختصار أو الضغط[1].

إن سفينكس المشهور الآخر موجود في طيبة، وهو تمثال يتكون من جسد أسد ورأس امرأة وله جناحان ، وتقول الأسطورة اليونانية : إن الآلهة قد أرسلت هذا التمثال إلى مدينة طيبة في اليونان ؛ كى تطرح على المارة من أهالي المدينة سؤالا عن ماهية الحيوان الذى يمشى صباحًا على أربعة أرجل ، وظهرا على رجلين اثنين، وعشاء على ثلاثة أرجل ؟ وكانوا يقتلون من يعجز عن الإجابة الصحيحة ، إلا أنه فى النهاية تمكن « أديب » من الإجابة على هذا الاستفهام قائلا بأن الحيوان المذكور هو الإنسان ، حيث يمشى فى طفولته على أربع وفي شبابه على اثنين وفى كهولته على عصا إضافة إلى رجليه.

واليوم كأن ذلك السؤال لم يزل يطرح نفسه من خلال عينى أبى الهول الصخريتين، وبقى سؤال أبى الهول قائمًا حيث يستفهم عن ماهية الإنسان بالرغم من تطور العلوم خلال القرون الماضية والتى منحت الإنسان قدرة على تجاوز الأساطير.

إن تمثال أبى الهول أو سفينكس الجيزة ، تمثال صخرى نحت أيام الملك خفرع عام ٢٢٥٠ قبل الميلاد بطول ٧٤ مترا وارتفاع ٢١ مترا تقريبًا ، وقد أصيب بأضرار بالغة بمدافع نابليون.

وأخيرًا وبعد ساعتين من التجوال حول أبى الهول والأهرام ، عدنا إلى محل إقامتنا ، وعرفنا أن الوفد الإيرانى برئاسة الدكتور ولاياتى بعد لقائه مع الوزير عمرو موسى زار المتحف المصرى عندما كنا فى زيارة الأهرام وسيذهب إلى زيارة الأهرام عصرًا، وعلى كل حال ذهبنا مع مراسلى الإذاعة والتلفاز إلى المتحف المصرى عصرًا.

---

(١) موسوعة المورد ، جـ٩ ، ص ١٠٢ .

المتحف المصرى

دخلنا المتحف فى الساعة الرابعة ، ولم تكن لدينا إلا ساعة واحدة للإطلاع على كل المتحف وما فيه من آثار عمرها آلاف السنين. عندها توجه صوبنا أحد الموجودين هناك لإطلاعنا على المتحف ، وقال لنا بعد أن أشار إلى الروابط الثقافية والتاريخية بين إيران ومصر : بما أن الوقت قصير ولابد أن نطلع على كل ما هو مهم هنا خلال ساعة واحدة ، تفضلوا لنبدأ من هنا ، وأنتم ضيوفى. فدخلنا المتحف دون أن نقطع تذكرة الدخول حتى ظننا أن الدخول مجانى ، غير أننا فهمنا فيما بعد أنه لابد من قطع تذكرة للدخول. لكننا بناء على تجربتنا خلال الأيام الماضية وتجارب غيرنا ، تحيرنا من سبب السماح لنا برؤية كل أنحاء المتحف دون أن ندفع جنيهًا واحدا.

يقع المتحف المصرى في ساحة التحرير الشهيرة ، وهو أحد أكبر المتاحف التاريخية فى العالم. حيث اجتمعت فيه آثار تاريخية لخمسة آلاف سنة مصرية ماضية. ومن أهم ما هو معروض فيه ما كان يملكه الفرعون المصرى ـ توت عنخ آمون ـ الذى توفى شابًا.

ففى الوقت الذى ترى توابيت الأجساد المحنطة فى صناديق زجاجية وهى مرصوصة إلى جنب بعضها البعض ، ترى تماثيل الفراعنة الصخرية واقفة وثابتة وهى تحكى عظمة مصر القديمة. كما أن مجوهرات وأموال ـ توت عنخ آمون ـ قد شغلت القسم الأعظم من المتحف. وفى إحدى الجهات ترى التماثيل الصغيرة التى وضعت فى القبر نيابة عن النساء والعبيد تعبيرًا عن تقديم الخدمات للفراعنة بعد موتهم ، وفى قسم آخر ترى الغلات وحبات العنب والطعام المتعلق بآلاف السنين الماضية ، والقلائد والتيجان والخواتم والأساور ، والمرايا والسلاسل والنياشين ، وأنواع الأحجار الثمينة وأسرة النوم والكراسى ، وأماكن الأزهار والتماثيل وصناديق أدوات الزينة وصناديق المجوهرات ، كما نشاهد مصنوعات مختلفة خشبية وفلزية وذهبية وفضية وعاجية ، وآلات حربية وصحون وزينة ، بنفس دقة وجمال ما يتم صناعته اليوم من الأحجار الثمينة. لقد عرض هذا المتحف روعة الفن المصرى القديم.

إن من ينظر إلى ما تم استخراجه من مقبرة - توت عنخ آمون - من مصنوعات ؛ يرى الجمال الذى كان عليه الأثاث المصرى القديم • كما يرى أيضًا آنوبيس الأسود[1] وأخيرًا أرشدنا الدليل إلى تمثال وقال: لابد أنكم تعرفون صاحب هذا التمثال إنه الإسكندر الأكبر •

بالرغم من جمال التماثيل المصفوفة على طول المتحف ، إلا أننى اتفق مع قول « ديورانت » لا يوجد أجمل من تمثال خفرع فى تاريخ صناعة التماثيل ، حيث جُسدت على أفضل وجه قدرة ورغبة وإصرار الملك (أو الفنان)[2] •

لقد أعلنت دقات الساعة الخامسة مشيرة إلى انتهاء فترة عمل المتحف ، فقذفت بنا من أعماق التاريخ إلى الزمن الحاضر ، فغادرناه إلى مقصدنا التالى •

ضريح السيدة زينب

كانت زيارة ضريح السيدة زينب فى رأس قائمة أعمالى سواء فى زيارتى الأخيرة لمصر أو قبلها ، ولكنها لم تتم قبل هذه الليلة لأسباب • على أية حال إن الروايات التاريخية التى تتحدث عن آخر سفر لزينب (عليها السلام) بعد فاجعة كربلاء متباينة • فبعضها تقول إنها سافرت إلى مصر ، وبعضها الآخر يقول إنها سافرت إلى الشام ، كما ذكر البعض أنها أقامت بشكل دائم فى المدينة المنورة • هذا الإبهام فى محل دفنها دفع بمحبيها إلى إعمار قبريها فى الشام ومصر •

وعلى أية حال ، إذا اكتنف الغموض وفاتها فى مصر ، فإن سفرها إليها لا شك فيه ، حيث استقبلها الناس وهم ينوحون بأصوات عالية ، وكان من ضمن المستقبلين مسلمة بن مخلد الوالى على مصر آنذاك • وما أن شاهدت دموعهم وآهاتهم حتى تلت الآية الكريمة : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾[3] لقد رتلوا آية القيامة هذه بينما كانوا مبهوتين يبحثون عن أنفسهم فى صحراء قيامتهم ، فوجدوا تحقيق الوعد الإلهى وصدق حديث الرسل واضحًا •

---

(١) وهو إله الموت ودليل الأرواح فى مصر القديمة بجسم إنسان ورأس ثعلب •

(٢) قصة الحضارة ، ول يدورانت ، ص٢٢٣ •

(٣) سورة يس ، الآية ٥٢ •

إن أهم مصدر تناول زيارة زينب لمصر هو كتاب « أخبار الزينبيات » ليحيى ابن الحسن الحسيني العبيدلي ، وقد اعتبره آية الله العظمى المرعشي النجفي نصـًا موثوقــًا في المقدمة التي كتبها له. لقد نص هذا الكتاب على أن زينب قد توفيت في مصر في النصف الأول من شهر رجب سنة ٦٢ أو ٦٣هـ. كما أيد القاضي الطباطبائي رواية أخبار الزينبيات في كتاب « أربعينية سيد الشهداء » وأكدها باثني عشر مصدرًا معتبرًا ، وذكر دفنها في القاهرة أيضـًا[١]. كما أيدت سفر زينب إلى القاهرة كتب أخرى عديدة[٢].

ولكن بعض المحققين شكك في سند أخبار الزينبيات ونفى سفرها إلى مصر وأكد سفرها إلى الشام[٣].

كما شكك محققون آخرون كالعلامة السيد محسن الأمين في « أعيان الشيعة » في سفرها إلى الشام وإلى مصر ،وشكك كثيرا في خبر من يقول بخروجها من المدينة المنورة[٤].

وطبقــًا لروايات أخرى ، يكون مرقد زينب الكبرى في دمشق ومرقد زينب الصغرى في القاهرة ، وهناك رواية أخرى تقول بالعكس.

أشار ياقوت الحموي إلى مرقد رقية بنت علي[٥] في هامش رواية مصر وقد أورد اسم مرقد أم كلثوم في هامش رواية الشام دون أن يشير إلى مرقد زينب الكبرى.

على أية حال ، فإنه مهما أكثر الواصفون في مدحها فهم مقلون. وربما كان أحد

---

(١) من تلكم المصادر ، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) في تراجم سيدات النبوة ، أسد حيدر في كتابه « مع الحسين في نهضته » على أحمد شلبي في كتابه « زينب إبنة الزهراء » الشيخ جعفر النقدي في كتابه « زينب الكبرى » عمر رضا كحالة في كتابه « أعلام أعيان النساء » وأحمد أبو كف في كتابه « آل بيت النبي في مصر ».

(٢) من هذه المصادر ، تنقيح المقال ، لحسنين سابقي.

(٣) للإطلاع أكثر على هذا الموضوع يمكن مراجعة كتاب ، منادي عاشوراء ، مهاجراني ، ص٣٥١-٣٥٨.

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص١٤٢.

(٥) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٠-٢١.

طرق معرفة خصائصها هو الالتفات إلى ما لقبت به فى حياتها مثل الصدِّيقة الصغرى والعقيلة وعقيلة بنى هاشم وعقيلة الطالبيين والموثقة والعارفة والمعلّمة والفاضلة والكاملة والعابدة[١]... فمن خلال مثل هذه الألقاب يعرف الإنسان فضلها وعلمها وعقلها وكمالها ...الخ٠

لقد وصلنا إلى مرقدها ـ سلام الله عليها ـ وقت أداء صلاة العشاء٠ وقد كنت أعتقد بإمكانية قراءتى للزيارة بسهولة كما هو الحال فى مرقد زينب فى الشام ، غير أنى ما إن وقفت على قبرها حتى تذكرت شعر موسوى كرمارودى الجميل وهو يجرى على لسانى :

يا فلق العصمة وشمس العفة   أيها القلب الذى أخذت الشمس حرارتها منك

إن نداءك المدوى أحرق الظلم   وإن قتيلك المظلوم منتصر[٢]

وقد اغرورقت عيناى بالدموع واعتصرتنى الحسرة حيث منعونى من الدخول ، كما فعلوا فى مسجد رأس الحسين (عليه السلام) فلا يحق للنساء الدخول بعد الساعة الخامسة٠ كما أن التعليمات هناك تفرض على كل امرأة الدخول من الباب الخلفى وتخرج مباشرة بعد أن تقرأ الدعاء بسرعة وتمد يدها إلى الضريح كى يمكن لغيرها الدخول إلى الضريح لأداء مراسيم الزيارة أيضًا٠

كنت أتحدث مع نفسى فقلت لماذا تحرم النساء من الزيارة والصلاة والدعاء هنا رغم أنه ضريح السيدة زينب ؟ فدخلت دون أن أعير لمنع البواب اهتمامًا٠ وقلت إننى مراسلة صحفية ، ولكنه استمر يناقش الإخوة من وزارة الخارجية٠ وبما أن الوقت هو وقت صلاة ، فقد أخذونى إلى غرفة مساحتها (متر واحد فى متر ونصف المتر) كى أصلى هناك ، وكان على أثناء الركوع أن احتاط خوفًا من اصطدام رأسى بالجدار ! وقد بقيت هذه الزنزانة فى ذهنى كابوسًا حتى الآن٠ ومرة أخرى خطر على بالى أن الإسلاميين فى مصر ـ إن لم يصححوا نظرتهم إلى المرأة ـ فإن جهدهم وخطابهم

---

(١) الشيخ فرج آل عمران القطيفى ، وفاة زينب الكبرى ، قم ، منشورات الشريف الرضى ، ص٤ ٠
(٢) هذه الأبيات مترجمة من الفارسية٠

سيبقى محجوبًا عن نصف المجتمع المصرى ـ على الأقل ـ أى سوف لن تعتنى النساء بهم ، وكذلك الآخرون ممن لديهم عقل حصيف .

خرجت من هذه الحجيرة بعد أن أتممت صلاتى ، فى حين كان الدكتور ولاياتى منهمكًا مع الوفد المرافق له بتلاوة نص زيارة زينب (عليها السلام) . ثم ذهبت بعد تلاوة الزيارة إلى الدراويش الذين كانوا يتلون أذكارهم حيث تحلقوا وهم يرددون بحماس وقوة يا الله . . يا الله . وفى الأماكن الأخرى جلس كل خمسة أو ستة أشخاص معًا لتلاوة القرآن .

وفى الختام أعرب إمام المسجد عن سروره بزيارة الدكتور ولاياتى والوفد المرافق له لمرقد السيدة زينب . ثم تحدث عن زينب وقال: إن والى مصر آنذاك قد اتخذها مستشارًا خاصًا له يستشيرها فى أعماله . ولهذا سميت بصاحبة الشورى ، وبعد وصولها إلى مصر بفترة قصيرة ، راحت تشكل للنساء حلقات الدرس والتربية لتعلمهن علوم القرآن وأحكام الفقه .

* * *

آخر يوم لاجتماع وزراء الخارجية

الجمعة : ٣ تموز (يوليو)

أنهى اجتماع وزراء خارجية دول حركة عدم الانحياز أعماله بالإعلان عن بيان ختامي من ٥٤ صفحة، تناول فيه أهم المسائل التى تعنى الدول الأعضاء، مثل دور الحركة على ضوء التحولات الجديدة فى العالم ، وإعادة تنظيم منظمة الأمم المتحدة ، ونزع الأسلحة والأمن الدولي.

أما الجهد الإيرانى فكان واضحًا فيما أقره الاجتماع حسب ما جاء فى بيانه الختامى ، وذلك على صعيد قراره بخصوص مؤتمر الرؤساء والتأكيد على طبيعة الحركة السياسية ، وإقرار كل ما جاء فى وجهة النظر الإيرانية فى مجال حقوق الإنسان ، وكذلك ما يتعلق بنزع الأسلحة وإدانة إسرائيل نتيجة طريقة تعاملها مع القضية الفلسطينية ، ومهاجمتها للبنان ، وما يتعلق بالبوسنة.

كانت إيران واحدة من الدول التى أقرت وجهات نظرها فى البيان الختامى وتم إدراجها.

إن الجمهورية الإسلامية فى إيران ، سواء فى اجتماع اللجنة السياسية ، أو فى الاجتماع الختامى ، أعلنت ضمن إدانتها للمساومة بشأن القضية الفلسطينية وتأييد المؤتمر لمسار السلام ، أن هذا يمثل تراجعات عن المواقف ويشجع الكيان الصهيونى على عدوانه. وفى الاجتماع الختامى قال الدكتور ولاياتي : نظرا إلى أن الحركة كانت إلى جانب الأهداف الفلسطينية ، وحاولت دائمًا إحقاق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، نعتبر ما جاء فى البيان الختامى بخصوص القضية الفلسطينية تراجعًا وخسارة قد برهنت على الاستسلام أمام العدوان ، الأمر الذى لن يؤدى إلا إلى عدوان وقمع أكبر من قبل المتجاوز. ثم أعلن الوزير عمرو موسى عن إدراج الاعتراض الإيرانى فى محضر الاجتماع. وبعد إعلان وجهة النظر الإيرانية ، اقترح

ممثل لبنان إدانة الهجوم الإسرائيلى على لبنان فى البيان الختامى ، وقد أيده ممثلو بقية الدول العربية٠

أما فى اللجنة الاقتصادية ، فقد استطاعت الجمهورية الإسلامية أن تكسب الموافقة على كل وجهات نظرها والإصلاحات التى تراها لتدرج فى مسودة الوثيقة النهائية ، وأهم هذه المقترحات :

١- السعى لأن تتحمل رئاسة الحركة مسئولية إعادة مباحثات الشمال والجنوب٠

٢- نظرًا لأهمية مباحثات أورجواى ، يطلب من مسئول مكتب تنسيق الحركة فى نيويورك أن يبين موقف الدول النامية حول المسائل المتعلقة بمباحثات أورجواى بالتعاون مع مجموعة الـ٧٧ بخصوص الحاجة إلى زيادة وتحسين الوصول إلى السوق العالمية٠

٣- يُطلب من رئيس مكتب تنسيق الحركة السعى لتوحيد مواقف الدول الأعضاء حول قانون العمل من أجل التنمية ، وذلك من خلال المباحثات وتبادل وجهات النظر مع رئيس الجمعية العامة٠

٤- انتقاد الممارسات التى تفرض قيودا اقتصادية على انتقال التكنولوجيا ذات الأهداف المزدوجة(*) وطلب مزيدا من الدراسة والتحقيق فى هذا المجال٠

٥- الإعراب عن عدم الارتياح لعدم وفاء الدول النامية بالتزاماتها٠ وكذلك التأكيد على ضرورة تنفيذها لالتزاماتها العالمية لغرض إدامة فعاليات الحفاظ على البيئة٠

٦- طلب تأسيس صندوق خاص من أجل الحيلولة دون حالة التصحر٠

أما على صعيد حقوق الإنسان ، فقد صادقت الحركة لأول مرة بمساعى إيران الحثيثة على بعض النقاط المشابهة لبيان بانكوك منها :

١- يجب أن تأخذ معاهدات حقوق الإنسان بنظر الاعتبار تاريخ ودين وثقافة الشعوب٠

(*) حربية ومدنية٠

٢- يجب عدم استغلال حقوق الإنسان كذريعة لممارسة الضغط السياسى على البلدان ٠

٣- إقرار آلية للوصول إلى إجماع على صعيد حقوق الإنسان عن طريق الحوار ، والاعتداد بالإجماع كى يحال دون مصادقة الغرب على المعاهدات من جانب سياسى واحد ٠

٤- إبداء القلق بشأن السياسات والقوانين الجديدة للدول الغربية التى تعتبر المهاجرين أجانب ٠

ومن جملة الموارد التي أشار إليها البيان الختامى لوزراء الخارجية ، إضافة إلى ما مر ذكره هو ، التأكيد على احترام حقوق الإنسان الأساسية والأصول العامة التى أقرتها البيانات والوثائق العالمية المتعلقة بحقوق الإنسان ، مثل حق حكم البلدان لأنفسها ، وحق تأسيس حكومة على أساس الأصول السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لكل بلد ٠ وتجنب التدخل فى شؤون الدول الأخرى بذريعة حقوق الإنسان ٠ وكذلك التأكيد على عدم استغلال حقوق الإنسان لممارسة الضغط السياسى والاقتصادى على الغير ٠ والإعلان عن القلق الشديد لما تتعرض له حقوق الإنسان من انتهاك فى يوغسلافيا السابقة خاصة بشأن حقوق المسلمين ، والتأكيد على وجوب اتخاذ الإجراءات اللازمة لإيقاف هذه الممارسات ٠

لقد طالب البيان الختامى - ضمن الإعراب عن قلقه لاستمرار الصراع فى أفغانستان - ، بتنفيذ لوقف إطلاق النار دون قيد أو شرط ٠ كما طالب العراق بالتنفيذ الكامل لقرارات الأمم المتحدة ٠ وطالب الأحزاب اليمنية المتخاصمة بحل خلافاتها بالطرق السلمية ٠ وطالب إسرائيل بالانسحاب الكامل من الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧ ٠ ووجه الدعوة أخيرا لدول الشرق الأوسط باتخاذ التدابير اللازمة لتحويل المنطقة إلى منطقة منزوعة السلاح النووى ٠ وطالب إسرائيل بالتخلى عن سلاحها النووى ، وبعد بحث طويل تم انتخاب كولومبيا كأرجح مكان لعقد اجتماع رؤساء دول الحركة ٠ ومما ينبغى ذكره هنا أن أكثر الدول الأعضاء لم تكن مستعدة لعقد المؤتمر فى هذا البلد ، وذلك لسوء أوضاعه الاقتصادية إلا أنه وفى نهاية المطاف ، تم الاتفاق

على كولومبيا ؛ لأن الجدول يشير إلى مجموعة دول أمريكا اللاتينية فى الدورة القادمة ٠

وأكد الوزير عمرو موسى رئيس الاجتماع فى الفقرة الأخيرة بأن هذا الاجتماع يعتبر انعطافًا نحو مرحلة جديدة من عمر الحركة ، وسيدفع بها نحو تحقيق أهدافها ٠

ولكى أطلع على مصر بصورة أفضل ، تخلفت عن الوفد عدة أيام فى القاهرة ، إذ كنت أرى أن قطع العلاقات السياسية بين مصر وإيران إنما جاء نتيجة لسوء فهم ؛ لذا ينبغى الإطلاع عن كثب على الأوضاع ووجهات النظر كى يمكننا تقديم تحليل مطابق للواقع فى تقاريرنا وتفسيرنا لما يجري٠

لقد أردت أن أرى هل صحيح ما تقوله وكالات الأنباء الغربية مثل رويتر وأسيوشيتد پرس وفرانس پرس وغيرها من أن القاهرة قد غرقت بالدم والنار؟ هل صحيح أن الحرب بالسلاح الأبيض فى بعض محلات القاهرة المعروفة قائمة الآن؟

كان هدف بقائى خمسة أيام فى مصر هو معرفة رؤية الأحزاب للأوضاع السياسية والاقتصادية ، والإطلاع على مواقف الشخصيات الحكومية مما يجرى فى الداخل وفى المنطقة، ومعرفة طبيعة وسائل الإعلام المقروءة٠ ومحاورة الوجوه الصحفية المشهورة٠

* * *

الأدب والثقافة

الأدب المعاصر

يرى الكاتب والمفكر المصرى (إبراهيم الدسوقى شتا) أستاذ اللغة والأدب الفارسى فى مصر أن شهرته على صعيد الأدب مدينة لترجمته مؤلفات الدكتور شريعتى ونشر أفكاره فى العالم العربى قبل أى شىء آخر ٠ إن ترجمة كتاب « العودة إلى الذات » للدكتور شريعتي من قبل شتا فى طبعته الأولى عام ١٩٨٦ ، استقبلت من جانب القراء بحفاوة غير مسبوقة ، حسبما ذكرته إحدى المجلات الأمريكية ، حتى أن طبعته الأولى قد بلغت مائة ألف نسخة ، وحصل الكتاب على عنوان الكتاب الأكثر طباعة فى ذلك العام ، لدرجة أن شتا قال : إننى قد ولدت مع هذا الكتاب[١]٠

كما أن الدسوقى شتا إضافة إلى ترجمته بعض كتب شريعتى ، ألف كتابين حول الثورة الإسلامية فى إيران عام ١٩٧٩ ، وأخذ على عاتقه مهمة تعريف المصريين على بعض جوانب التطورات الحاصلة فى إيران ٠

لقد أردت مع هذه المقدمة أن أتخذ من شتا حلقة وصل بين الأدبين الإيرانى والمصرى المعاصر ، وأن أفتح نافذة على بعض جوانب هذين الأدبين ٠ وهنا يجب القول إن الأدب العربى المعاصر هو وليد الأدب المصرى ، بالرغم من أن بعض الكتاب الغربيين يسعون لأن يقنعوا غيرهم بأن مصر الحديثة ليس لديها لغة ولا أدب ولا كتابة[٢]٠

---

(١) « شريعتى فى مصر » ، مجلة الثقافة الإيرانية ، العدد ١ ، ٢ ، السنة الثانية ، ص٢٩ ٠

(٢) للاطلاع أكثر راجع پروفسورها ميلتون كيب « الأدب العربى المعاصر » ترجمة الدكتور يعقوب آجند (طهران: انتشارات فاصل إطلاعات ، ١٣٦٦هـ ش) ٠ نقلا عن چورچ يانك ، فارسي ٠

إن مصر قلب العالم العربى ، فقد كتب نجيب محفوظ فى [أولاد حارتنا] عن اختيار جبلاوى حالة الانزواء فى داره سنين طوال ، واعتقد أهالى المحلة بأنه أصل أساس محلتهم وأن محلتهم أصل وأساس مصر وأن مصر هى أم الدنيا[1] إن هذا الحكم يصدق فى عالم الواقع إضافة إلى صدقه الفنى. فمما لا شك فيه أن لمصر على صعيد الثقافة والفن المنزلة الأولى فى الإطار العربى والإسلامى. فلهجة مصر نسبة إلى اللهجات العربية الأخرى كلهجة طهران نسبة إلى اللهجات الفارسية الأخرى. أما معرض كتاب القاهرة ، والمسرح ومحررو الصحف والصحافة والسينما والموسيقى والرواية فتحتل المرتبة الأولى من حيث التأثير. ويجب الالتفات إلى أن هذه هى النتيجة الطبيعية لبلد أنجب عبد الباسط عبد الصمد وتوفيق الحكيم وهيكل وعبدالرحمن بدوى وأم كلثوم ونجيب محفوظ وحسن البنا وأحمد شوقى وعبد الناصر ، هذه الشخصيات التى تشكل أمواجًا متلاطمة فى بحر الثقافة المصرية. وهنا لابد من الإشارة إلى أن إحدى نقاط ضعفنا على الصعيد الثقافى ، وهى أن كتابنا وقراءنا يعتبرون مؤلفى أمريكا اللاتينية أفضل وأكثر من مؤلفى الدول الإسلامية والعربية ، وبالأخص مؤلفى مصر ، فمن هو المقصر يا ترُى؟

ولمعرفة الأدب المصرى المعاصر ، نتعرض بشكل مختصر إلى ثلاثة ألوان من الكتابة فى القصة والمسرحية والشعر.

كتابة القصة

إن مصر أكثر الدول العربية نشاطـًا فى مجال كتابة القصة. حيث بقى هذا العمل قائمـًا على أساس الأطر والأساليب القديمة ، غير أنه وتمشيًا مع التطورات الحديثة ، تحرر من قيوده القديمة. وتعد قصة « زينب » الجهد الأول لشاب مصرى ، والتى شكلت حجر الأساس فى بناء الأدب المصرى الحديث[2]. كما أن الأدب المصرى يمتلك أساليب قصصية خاصة تعود إلى القرون الماضية.

---

(١) نجيب محفوظ ، أولاد حارتنا ، بيروت ، دار الآداب ١٩٨٦ ، ص٥ .

(٢) رضا ناظميان « مقدمة حول كتابة القصة فى مصر » كيهان الثقافية ، إيران ، السنة ٩ ، ص٢٣- ٢٤ .

وبنظرة فاحصة لمسيرة كتابة القصة العربية الحديثة ، ندرك أنها مرت بأربع مراحل[١].

المرحلة الأولى : هى مرحلة الترجمة ، حيث شهدت الساحة المصرية فعاليات الترجمة الأولى فى الساحة العربية. ويجب أن نعتبر رفاعة الطهطاوى رأس هذه الفعاليات.

أما المرحلة الثانية : فقد بُذلت فيها المساعى لتقليد القصص الأوروبية.

ثم المرحلة الثالثة : وهى مرحلة الإبداع ، حيث عمد الكتاب المصريون إلى تقنية قصصية جديدة ، كان منها فى هذه المرحلة قصة « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل و« الأيام » لطه حسين وقصص توفيق الحكيم.

أما المرحلة الرابعة : فقد بدأت فى العقد الخامس من القرن العشرين ، وقد برزت فيها طبقة جديدة من الكتاب العرب ، وعلى رأسهم نجيب محفوظ وبعض الكتاب العرب الآخرين.

رغم أن أغلب الروايات الصادرة قبل ثورة ١٩٥٢ قد كتبها أدباء مشهورون كتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ، بل وحتى نجيب محفوظ ، إلا أن القصص التى ترجع زمنيًا إلى مرحلة ما بعد الثورة ، قد كتبها أدباء شباب مع الأدباء القدماء. علمًا بأن أهم ما يميز الكتاب الشباب عن الكتاب القدماء هو سيادة الأفكار الحائرة غير المثمرة والمثيرة لحالة الحيرة والاضطراب. ويمكن رد مرجعيتها - إلى حد ما - لحالة الحيرة التى انطوت عليها الاشتراكية العربية. وفشل بعض أطروحات عبد الناصر السياسية ، أو نفوذ بعض المذاهب الفكرية المضطربة والغربية المنحرفة فى مصر[٢]. إن نجيب محفوظ الذى يعتبر أحد الكتاب الأعلام المصريين ، لم يكتب شيئًا لمدة خمس سنوات بعد الثورة ! وبقى مراقبًا دقيقًا لما يجرى فى مصر ، يفحص ويحقق حوادث الثورة والتغييرات التى تحدثها فى حياة المواطنين الاجتماعية.

---

(١) هكذا على أساس التقسيم الذى جاء فى كتاب « الأدب العربى » لأبى الخشب.

(٢) على أكبر كسمايى « دور نجيب محفوظ والكتاب المصريين الشباب فى ثورة ١٩٥٢ » ، إطلاعات، ١٠ نوفمبر ١٩٨٩.

المصرية ، على أن يبقى الخبراء الفنيون المدنيون الإنجليز فى منطقة القناة للإشراف على الأمور الفنية[1].

كان عبد الناصر يعانى عام ١٩٥٦ من الحاجة إلى رأس المال لبناء السد العالى وكانت أمريكا قد وعدته من قبل بتمويل مشروعه. ولكنه حينما اطلع على تصريح وزير الخارجية الأمريكي القاضى بامتناعه عن ذلك نتيجة لضعف الاقتصاد وعدم استقرار الحكم المصرى ، قرر تأميم قناة السويس لتأمين رأس المال اللازم ، وكان تأميم القناة فى ٢٦/تموز (يوليو)/ ١٩٥٦ .

إن تأميم قناة السويس فى مصر عام ١٩٥٦ كان فى الواقع مشابهًا لتأميم النفط فى إيران أثناء النهضة الوطنية عام ١٩٤٩ . ومن الجدير بالذكر أن بريطانيا اتبعت أسلوبًا واحدا فى إيران ومصر حيث تحكمت فى الأولى بواسطة شركة النفط الإيرانية الإنجليزية ، وفى الثانية بواسطة شركة قناة السويس ، ومن ثم سيطرتها على جميع مقدرات ومنافع البلدين. ولم تأت اعتباطًا إدانة محمد رضا الشديدة للنهضة الوطنية ولعبد الناصر بعد مؤامرة ١٩ تموز (يوليو) وهزيمة النهضة الوطنية وسقوط الدكتور مصدق. بل كانت تصبو إلى تكريس المصالح الإنجليزية. قال الشاه فى ٢٤/ ١٩٦٢/١ فى مدينة قم ، فى خطاب له ضد التيارات الإسلامية والوطنية :

« إن الحكومة المصرية هى المثال الذى اقتفته هذه الثلّة المسكينة ، هذه الحكومة التى تمارس كل أعمالها ضدنا »[2].

لقد طلب رئيس الوزراء الإسرائيلى بن جوريون من الشاه فى رسالته التى وجهها إليه فى الشهر السادس لعام ١٩٦٣ ؛ مساعدة إسرائيل فى مواجهتها لعبد الناصر وإقامة علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل[3].

وقد هزت مبادرة عبد الناصر فى تأميم قناة السويس القوى الغربية الكبرى بشدة لهذا قررت شن هجوم عسكرى على مصر . فقد وجدت الخطر يهدد مصالحها فى

---

(١) نجاتى ، « الحركات الوطنية المصرية » ، ص١٧٦- ١٧٨ .

(٢) « دراسة وتحليل لنهضة الإمام الخمينى » ، ص٢٦٣- ٢٦٥ .

(٣) محمود طلوعى ، « قصة الثورة » (طهران ، ١٩٩١) ، ص٢١١- ٢١٣ .